التبر المسبوك



أبي حامد الغزالي

(المتوفى سنة ٥٠٥ هجرية)

عربه عن الفارسية الى العربية احد تلامذته

راجعه

سامي خضر

مكتبة الكليات الأزهرية

حسين محمد امبابي المسابوي

شارع الصادقية ٩ ميدان الأزهر

التعريف بالكتاب

جاء في كشف الظنون صحيفة ٢٤٣ من الجزء الأول ما نصه بالحرف الواحد :

التبر المسبوك في نصائح الملوك

فارسي للإمام أبي حامد محمد بن محمد الغزالي المتوفى سنة ٥٠٥ ألّفه للسلطان محمد بن ملك شاه السلجوقي ، ثم عرّبه بعضهم ، ونقله محمد بن علي المعروف بعاشق جلبي الى التركية ، ونقله أيضاً علائي بن محمد الشريف الشيرازي لسنان بك من أتباع بايزيد بن السلطان سليمان خان وسماه نتيجة السلوك ، وهو على مقدمة أورد فيها نصائح الغزالي لمحمد بن ملك شاه ، ومقالتين وسبعة أبواب ، وفي هذا المترجم إلحاقات كثيرة ونقله أيضاً المولى محمد بن عبد العزيز المعروف بوجودي المتوفى سنة ألف وعشرين . أ . هـ . بحروفه .

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المترجم

الحمد للّه على أنعامه وأفضاله ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وأصحابه وآله ، (وبعد) .

فإنه سألني بعض المتقدمين من الكبراء أن أنقل هذا الكتاب وهو كتاب نصيحة الملوك من اللغة الفارسية إلى الألفاظ العربية ، فامتثلت ذلك ونقلته على ترتيبه وصورته ، ولم أغيّر شيئاً من وضع الكتاب وصفته ، واجتهدت في تسهيل عباراته ، وإيضاح إشاراته ، قصداً لمستعمل الكلام ، ليكون أقرب للإفهام ، بقدر ما بلغته بلاغته وأفصحت عنه فصاحته ، وترجمت عما استشهد به مؤلف الكتاب من الأخبار والأشعار الفارسية ، بأشعار من العربية ، إشارة إلى معانيها ، وتلويحاً إلى مقاصدها ومعازيها ، وأنا اعتذر عن تقصيري بفضلهم غاية الاعتذار ، إذ لم أكن من فرسان هذا المضمار ، فليتجاوز عن تقصيري الكرماء ، وليصفح لي عن نقصه بفضلهم العلماء ، ومن وجد في كلامه خللاً فستره ، أو اصاب زللاً فغيره ، حاز بذلك نيل الأجر ، وجميل الذكر ، وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب .


To: www.al-mostafa.com

تمهيد

قال الشيخ الإمام العالم العارف زين الدين حجة الإسلام شرف الأئمة أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي ، رحمه اللّه ، وهو يخاطب السلطان محمد ابن ملك شاه رحمه اللّه .

إعلم يا سلطان العالم ، ملك الشرق والغرب ، أن للّه عليك نعماً ظاهرة ، وآلاء متكاثرة ، يجب عليك شكرها ، ويتعين عليك إذاعتها ونشرها ، ومن لم يشكر نعم اللّه ، جلّ ثناؤه ، وتقدّست أسماؤه ، فقد عرض تلك النعمة للزوال وخجل من تقصيره يوم القيامة ، وكل نعمة تفنى بالموت فليس لها عند العاقل قدر ولا عند اللبيب خطر ؛ لأن العمر وإن تطاولت مدده ، لا ينفع طوله إذا انقضى عدده ، فإن نوحاً عليه السلام عاش ألف سنة ونيفاً ومن موته الى الآن خمسة آلاف سنة وكأنه لم يكن ، فالقدر للنعمة التي تبقى على الدوام ، وتدوم مدى الليالي والأيام ، وهي نعمة الإيمان الذي هو بذر السعادة المؤبدة ، والنعمة المخلّدة ، واللّه جلّت قدرته وعلت كلمته وآلاؤه قد خوّلك بهذه النعمة وزرع بذر الإيمان في صفاء صدرك ، وأودعه في قلبك وسرك ، ومكّنك من تربية ذلك البذر وأمرك أن تسقيه ماء الطاعة حتى تصير شجرة أصلها في قعر الأرض السفلى ، وفرعها في السمٰوات العلى ، كما قال عز من قائل : ﴿ ألم ترَ كيف ضرب اللّه مثلاً

كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء﴾[1]، وإذا لم يثبت أصل الشجرة بالايمان ولم يكمل فرعها يخاف عليها من هبوب رياح الموت ، وعواصف الفوت ، فتنقلع عند النفس الأخير فيبقى العبد والعياذ باللّه بغير إيمان ، ويلقى ربه بغير إحسان .

واعلم أيها الملك أن لهذه الشجرة عشرة أصول وعشرة فروع ؛ فأصلها الاعتقاد بالجنان ، وفرعها العمل بالأركان ، ولما صادف القبول من المجلس العالي شرح هذه العشرة أصول والعشرة فروع ، ليشتغل سلطان العالم بتربية هذه الشجرة ، وإنما يصح له ذلك إذا أفرد يوماً من أيام الأسبوع لعبادة ربه والاشتغال فيه بعمل الآخرة وهو يوم الجمعة ، فإنه عيد المؤمنين وفيه ساعة شريفة كل من سأل اللّه تعالى فيها حاجة بنية حاضرة ، وسريرة طاهرة ، فإنه جلّ ذكره يقضي حاجته ، ولا يخيب دعوته ، وماذا عليك إذا أفردت من سبعة أيام يوماً واحداً لخدمة ربك فإنه في المثل : لو كان لك عبد وأمرته أن يشتغل في كل أسبوع يوماً واحداً بخدمتك ليتأهب له مع تقصيره في الأيام الستة فخالفك ذلك العبد كيف يكون حاله عندك مع أن العبد لست بخالقه وإنما هو عبد لك مجازاً

وأنت أيها الملك عبد مخلوق للخالق تعالى وعبده على الحقيقة فلمَ ترضى من نفسك ما لا ترضاه من عبدك ؟

فانوِ الصيام من ليلة الجمعة وإن أضفت إليه الخميس كان أولى ، وقم يوم الجمعة صبحاً واغتسل والبس من الثياب ما له ثلاث صفات ، أن يكون حلالاً ، وأن لا يكون أبريسماً ، وأن يكون مما تجوز فيه الصلاة ، في الصيف الدبيقي والقصب والكتان والتوزري ، وفي الشتاء الخز والصوف الرومي وكل ثوب على غير هذه الصفة فإن اللّه تعالى لا يرضاه ، وصلِّ الصبح في جماعة ولا تتكلم إلى أن تطلع الشمس ولا تحوّل وجهك عن القبلة ، وخذ السبحة في يدك وقل لا إله إلا اللّه محمد رسول اللّه ألف

---

(١) سورة إبراهيم ، الآية ٢٤ .

مرة ، فإذا طلعت الشمس فأْمُرْ قارئاً يقرأ عليك هذا الكتاب ، وكذلك فليقرأ عليك في كل جمعة ليحصل في محفوظتك ، فإذا فرغ القارىء من قراءة الكتاب فصلِّ أربع ركعات وسبح إلى وقت الضحى فإن ثواب هذه الصلاة عظيم وخاصة يوم الجمعة .

وبعد ذلك إذا كنت على تخت الإسلام أو كنت في الخلوة فقل : اللهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد متواتراً ومهما قدرت أن تتصدق به في هذا اليوم فتصدق واجعل هذا اليوم الواحد من أيام الأسبوع للّه ليجعل اللّه باقي الأسبوع مكفراً عنك .

* * *

ابتداء قاعدة الاعتقاد الذي هو أصل الإيمان

إعلم أيها السلطان أنك مخلوق ولك خالق وهو خالق العالم وجميع ما في العالم ، وأنه واحد لا شريك له ، فرد لا مثل له ، كان في الأزل وليس لكونه زوال ، ويكون مع الأبد وليس لبقائه فناء ، وجوده في الأبد والأزل واجب وما للعدم إليه سبيل ، وهو موجود بذاته ، وكل أحد محتاج إليه وليس له إلى أحد احتياج ، وجوده به ووجود كل شيء به .

* * *

الأصل الثاني في تنزيه الخالق تعالى

إعلم أن البارىء ، تعالى ذكره ، ليس له صورة ولا مثل ، وأنه لا ينزل ولا يحل في قالب ، وأنه تعالى منزّه عن الكيف والكم ، وعن لماذا وكم ، وأنه لا يشبه شيئاً ولا يشبهه شيء ، وكلما يخطر في الوهم والخيال والفكر من التخييل والتمثيل والتكييف فانه منزّه عن ذلك ، لأن ذلك من صفات المخلوقين وهو خالقها فلا يوصف بها ، وأنه تعالى جدّه ليس في مكان ولا على مكان ، فإن المكان لا يحصره ، وكل ما في العالم فإنه تحت عرشه ، وعرشه تحت قدرته وتسخيره ، وأنه قبل العرش كان فترها عن المكان وليس العرش بحامل له بل العرش وحملته يحملهم لطفه وقدرته ، واستواؤه على العرش كما قال ، وعلى الوجه الذي قال وبالمعنى الذي أراد ، استواء منزهاً عن الاستقرار والمماسة والتمكن والحلول والانتقال ، وهو سبحانه فوق العرش وفوق كل شيء إلى تخوم الثرى ، وهو مع ذلك قريب من كل موجود ، وهو أقرب الى البعيد والقريب من حبل الوريد ، وهو

على كل شيء قدير وشهيد ، فعّال لما يريد لا يزال في نعوت الجمال ، وصفات الجلال ، منزهاً عن الزوال والانتقال ، مستغنياً عن زيادة الاستكمال ، وأنه منزه عن الحاجة الى المكان قبل خلقه العرش وبعد خلقه العرش ، وأنه متّصف بالصفة التي كان عليها في الأزل ، ولا سبيل الى التغير والانقلاب الى صفاته ، وهو سبحانه مقدّس عن صفات المخلوقين ومنزّه عنهم ، وهو في الدنيا معلوم وفي الآخرة مرئي كما نعلمه في الدنيا بلا مثل ولا شبه ، لأن تلك الرؤية لا تشابه رؤية الدنيا ، ليس كمثله شيء وهو السميع البصير .

الأصل الثالث في القدرة

وأنه تعالى على كل شيء قدير وملكه في نهاية الكمال ، ولا سبيل الى العجز والنقصان بل ما شاء فعل وما يشاء يفعل ، وأن السموات السبع والأرضين السبع والكرسي والعرش في قبضة قدرته وتحت قهره وتسخيره ومشيئته ، هو مالك الملك لاملك إلا ملكه ، تعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً .

* * *

الأصل الرابع في العلم

وأنه تعالى عالم بكل معلوم وعلمه محيط بكل شيء ، فليس شيء في العلا الى الثرى إلا قد أحاط به علمه لأن الأشياء جميعها بعلمه ظهرت وبإرادته خلقها وبقدرته كونها ، وأنه تعالى يعلم عدة رمال القفار ، وقطرات الأمطار ، وورق الأشجار ، وغوامض الأفكار ، وما دارت عليه الرياح والهواء في علمه ظاهر مثل عدد نجوم السماء . وأن جميع ما في العالم بإرادته ومشيئته وليس شيء من قليل أو كثير ، صغير أو كبير ، خير أو شر ، نفع أو ضر ، زيادة أو نقصان ، راحة أو تعب ، صحة أو وصب ، إلا بحكمه

وتدبيره ، ومشيئته وتقديره . لو اجتمع الأنس والجن والملائكة والشياطين على أن يحرّكوا في العالم ذرة أو يسكنوها أو ينقصوا منها أو يزيدوا فيها بغير إرادته وحوله وقوته لعجزوا عن ذلك ولم يقدروا ، وما شاء اللّه كان وما لا يشاء لا يكون ، ولا ترد مشيئته ومهما كان ويكوّن أو هو كائن فإنه بتدبيره وأمره وتسخيره .

* * *

الأصل الخامس والسادس في أنه سميع بصير

وكما أنه عالم بجميع المعلومات فإنه سميع لكل مسموع ، بصير لكل مبصر ، وأنه بسمع واحد وبصر واحد يرى دبيب النملة في الليلة المظلمة ، ولا يخفى عن سمعه صوت الدود تحت أطباق الأرض ، وأن سمعه ليس بأذن وبصره ليس بعين . وكما أن علمه لا يصدر عن فكرة ففعله بغير آلة وعدة يقول للشيء كن فيكون .

* * *

الأصل السابع في الكلام

وأن أمره تعالى على جميع الخلق نافذ واجب مهما أخبر به من وعد ووعيد فانه حق وأمره كلامه . وكما أنه عالم مريد قدير سميع بصير فهو متكلم وكلامه بغير حلق ولا لسان ، ولا فم ولا أسنان ، والقرآن والتوراة والإنجيل والزبور والكتب المنزّلة على الأنبياء ، عليهم السلام جميعها ، كلامه . وكلامه صفته وكل صفاته قديمة ، وكما أن الكلام عند الآدمي حرف وصوت فكلام اللّه منزّه عن الأصوات والحروف .

* * *

الأصل الثامن في أفعاله تعالى

وأن جميع ما في العالم مخلوق له تعالى وليس معه شريك ولا خالق بل هو الخالق الواحد ، ومهما خلقه من تعب ومرض وفقر وعجز وجهل فعدل منه ، ولا يمكن الظلم في أفعاله لأن الظالم هو الذي يتصرف في ملك غيره ، والخالق تعالى لا يتصرف إلا في ملكه ، وليس معه مالك سواه ، وكل ما يكون وهو كائن فهو ملك له ، وهو المالك بلا شبيه ولا شريك ، وليس لأحد عليه اعتراض بلم وكيف ، لكن له الحكم والأمر في كل أفعاله وما لأحد غير التسليم والنظر ى صنعه والرضا بقضائه .

***

الأصل التاسع في ذكر الآخرة

وأنه تعالى خلق العالم من نوعين جسد وروح ، وجعل الجسد منزلاً للروح لتأخذ زاداً لآخرتها من هذا العالم ، وجعل لكل روح مدة مقدّرة تكون في الجسد ، فآخر تلك المدة هو أجل تلك الروح من غير زيادة ولا نقصان ، فإذا جاء الأجل فرّق بين الروح والجسد ، وإذا وضع الميت في قبره أعيدت روحه الى جسده ليجيب سؤال منكر ونكير ، وهما شخصان هائلان عظيمان فيسألانه من ربك ومن نبيك فإن استعجم ولم يجب عذّباه وملآ قبره حيات وعقارب . ويوم القيامة ، يوم الحساب والمكافأة والمناقشة والمجازاة ، تردّ الروح الى الجسد وتنشر الصحف وتعرض الأعمال على الخلائق ، فينظر كل إنسان في كتابه فيرى أعماله ، ويشاهد أفعاله ، ويعلم مقدار طاعته ومعصيته ، وتوزن أعماله في ميزان الأعمال ثم يؤمر بالجوار على الصراط . والصراط أدق من الشعرة وأحدّ من الشفرة فكل من كان في هذا العالم على الطريقة المستقيمة الصالحة ، وسلوك المحجة الواضحة ، عبر على الصراط وجازه في راحة واستراحة ، وإن لم يكن على السيرة المحمودة ، والأعمال الصالحة الرشيدة وعصي مولاه ، واتّبع هواه ، فإنه لا

يجد الطريق على الصراط ولا يهتدي الى الجواز ويقع في جهنم . والكل يوقفون على الصراط ويُسألون عن أفعالهم ؛ فيُسأل الصادقون عن صدقهم ويمتحن المراؤون والمنافقون ويفضحون ، فمن الناس قوم يدخلون الجنة بغير حساب وجماعة يحاسبون بالرفق والمسامحة ، وجماعة يحاسبون بالصعوبة والمناقشة والمحاققة ، ثم يسحب الكفار الى نار جهنم بحيث لا يجدون خلاصاً ، ويدخل أهل الإسلام المطيعون الى الجنة ويؤمر بالعصاة الى النار ، وكل من نالته شفاعة الأنبياء والعلماء والأكابر عُفي عنه ، وكل من ليس له شفيع عوقب بمقدار إثمه وعُذّب بقدر جرمه ، ثم يدخل الجنة إن كان قد سلم معه إيمانه .

* * *

الأصل العاشر في ذكر رسول اللّه صلى الله عليه وسلم

ولما قدّر اللّه تعالى هذا التقدير وجعل أفعال الإنسان وأحواله ، واكتسابه وأعماله ، منها ما هو سبب لسعادته ، ومنها ما هو سبب لشقاؤته ، والإنسان لا يقدر أن يعرف ذلك من تلقاء نفسه ، خلق اللّه تعالى ، بحكم فضله ورحمته ، وطوله ومنته ، ملائكة وبعثهم إلى أشخاص قد حكم لهم بالسعادة في الأزل وهم الأنبياء ، عليهم الصلاة والسلام ، فأرسلهم إلى الخلق ليوضحوا لهم طرق السعادة والشقاوة لئلا يكون للناس على اللّه حجة ، وأرسل نبينا محمداً صلى اللّه عليه وسلم آخراً ، وجعله بشيراً ونذيراً ، فأوصل نبوّته الى درجة الكمال ، فلم يبقَ للزيادة فيه مجال ، ولهذا جعله خاتم الأنبياء فلا نبي بعده ، وأمر الخلائق من الأنس والجن بطاعته واتباعه وجعله سيد الأولين والآخرين ، وجعل أصحابه خير أصحاب الأنبياء ، صلوات اللّه عليهم أجمعين .

* * *

ذكر فروع شجرة الإيمان

إعلم أيها السلطان أن كل ما كان في قلب الإنسان من معرفة واعتقاد فذلك أصل الإيمان ، وما كان جارياً على أعضائه السبعة من الطاعة والعدل فذلك فرع الإيمان . فإذا كان الفرع ذاوياً ذابلاً دلّ على ضعف الأصل فإنه لا يثبت عند الموت ، وعمل البدن عنوان إيمان القلب .

والأعمال التي هي فروع الإيمان هي تجنب المحارم وأداء الفرائض ، وهما قسمان :

أحدهما بينك وبين اللّه تعالى مثل الصوم والصلاة والحج والزكاة واجتناب شرب الشراب والعفة عن الحرام .

والأخرى بينك وبين الخلق وهي العدل في الرعية والكف عن الظلم .

والأصل في ذلك أن تعمل فيما بينك وبين الخالق تعالى من طاعة أمره والازدجار بزجره ، وما تختار أن تعتمده عبيدك في حقك ، وأن تعمل فيما بينك وبين الناس ما تؤثر أن يعمل معك من سواك إذا كان غيرك السلطان وكنت من رعيته .

واعلم أنّ ما كان بينك وبين الخالق سبحانه فإن عفوه قريب ، وأما ما يتعلق بمظالم الناس فإنه لا يتجاوز به عنك على كل حال يوم القيامة وخطره عظيم ولا يسلم من هذا الخطر أحد من الملوك إلا ملك عمل بالعدل والانصاف ليعلم كيف يطلب العدل والانصاف يوم القيامة .

وأصول العدل والانصاف عشرة

الأصل الأول من ذلك

هو أن تعرف أولاً قدر الولاية وتعلم خطرها ، فإن الولاية نعمة من نعم اللّه عز وجل ، من قام بحقّها نال من السعادة ما لا نهاية له ولا سعادة

بعده ، ومن قصّر عن النهوض بحقها حصل في شقاوة لا شقاوة بعدها إلا الكفر باللّه تعالى . والدليل على عظم قدرها ، وجلالة خطرها ، ما روي عن رسول اللّه ، صلى اللّه عليه وسلم ، أنه قال : « عدل السلطان يوماً واحداً أحب إلى اللّه من عبادة سبعين سنة » . وقال عليه الصلاة والسلام : « إذا كان يوم القيامة لا يبقى ظل ولا ملجأ إلا ظل اللّه ولا يستظل بظله إلا سبعة أناس : سلطان عادل في رعيته ، وشاب نشأ في عبادة ربه ، ورجل يكون في السوق وقلبه في المسجد ، ورجلان تحابا في اللّه ، ورجل ذكر اللّه في خلوته فأذرى دمعه من مقلته ، ورجل دعته امرأة ذات حسن وجمال ومال الى نفسها فقال إني أخاف اللّه ، ورجل يتصدق سراً بيمينه ولم تشعر بها شماله» . وقال عليه الصلاة والسلام : « أحب الناس الى اللّه تعالى وأقربهم إليه السلطان العادل ، وأبغضهم إليه وأبعدهم منه السلطان الجائر » . وقال عليه الصلاة والسلام : « والذي نفس محمد بيده إنه ليرفع للسلطان العادل إلى السماء من العمل مثل عمل جملة الرعية ، وكل صلاة يصلّيها تعدل سبعين ألف صلاة » .

فإذا كان كذلك فلا نعمة أجلّ من أن يعطى العبد درجة السلطنة ويجعل ساعة من عمره بجميع عمر غيره ، ومن لم يعرف قدر هذه النعمة واشتغل بظلمه وهواه يخاف عليه أن يجعله اللّه من جملة أعدائه .

ومما يدلّ على خطر الولاية ما روي عن ابن عباس أن رسول اللّه ، صلى اللّه عليه وسلم ، أتى بعض الأيام فلزم حلقة باب الكعبة ، وكان في البيت نفر من قريش فقال : « يا سادات قريش عاملوا رعاياكم وأتباعكم بثلاثة أشياء : إذا سألوكم الرحمة فارحموهم ، وإذا حكّموكم فاعدلوا فيهم ، واعملوا بما تقولون ؛ فمن لم يعمل بهذا فعليه لعنة اللّه وملائكته لا يقبل اللّه منه فرضاً ولا نفلاً » . وقال عليه الصلاة والسلام : « من حكم بين إثنين بظلم فلعنة اللّه على الظالمين » ، وقال عليه الصلاة والسلام : « ثلاثة لا ينظر اللّه إليهم : سلطان جائر كاذب ، وشيخ زانٍ ، وفقير متكبر ، يعني أنه متكبر للطمع » . وقال عليه الصلاة والسلام يوماً للصحابة : «سيأتي عليكم

يوم تفتحون فيه جانبي الشرق والغرب ويصير في أيديكم ، وكل عمال تلك الأماكن في النار إلا من اتقى اللّه وسلك سبيل التقوى وأدّى الأمانة » . وقال عليه الصلاة والسلام : « ما من عبد ولّاه اللّه أمر رعية فغشهم ولم ينصح لهم ولم يشفق عليهم الا حرّم اللّه عليه الجنة » . وقال عليه الصلاة والسلام : « من ولّي أمور المسلمين ولم يحفظهم كحفظه أهل بيته فقد تبوأ مقعده من النار » . وقال عليه الصلاة والسلام : « رجلان من أمتي يحرمان شفاعتي : ملك ظالم ومبتدع غالٍ في الدين يتعدى الحدود » . وقال عليه الصلاة والسلام : « أشدّ الناس عذاباً يوم القيامة السلطان الظالم » . وقال عليه الصلاة والسلام : « خمسة قد غضب اللّه عليهم إن شاء أمضى غضبه ومقرهم النار : أمير قوم يطيعونه يأخذ حقه منهم ولا ينصفهم من نفسه ولا يرفع الظلم عنهم ، ورئيس قوم يطيعونه ولا يُساوي بين القوي والضعيف ويحكم بالميل والمحاباة ، ورجل لا يأمر أهله وأولاده بطاعة اللّه ولا يعلمهم أمور الدين ولا يبالي من أين أطعمهم ، ورجل استأجر أجيراً فتمم عمله ومنعه أجرته ، ورجل ظلم زوجته في صداقها » .

ويروى أن عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه تبع يوماً جنازة فتقدم رجل فصلى عن الجنازة فلما دفن الميت وضع ذلك الرجل يده على القبر وقال : اللهم إن عذبته فبحقك لأنه عصاك وإن رحمته فإنه فقير الى رحمتك ، وطوبى لك أيها الميت إن لم تكن أميراً أو عريفاً أو كاتباً أو عوانياً أو جابياً . فلما تكلم بهذه الكلمات غاب شخصه عن عيون الناس فأمر عمر بطلبه فلم يوجد ، فقال عمر : هذا الخضر عليه السلام .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « ويل للأمراء وويل للعرفاء وويل للعوانية فإنهم أقوام يعلقون من السماء بذوائبهم في القيامة ، ويسحبون على وجوههم الى النار ، يودون لو لم يعلموا عملاً قط » . وقال عليه الصلاة والسلام : « ما من رجل ولي أمر عشرة من الناس إلا وجيء به يوم القيامة ويداه مغلولتان الى عنقه ، فإن كان عمله صالحاً فكّ الغل عنه ، وإن كان عمله سيئاً زيد عليه غل آخره » . وقال علي بن أبي طالب رضي اللّه عنه :

ويل لقاضي الأرض من قاضي السماء حين يلقـاه إلا من عدل وقضى بـالحق ولم يحكم بالهوى ولم يمل مع أقاربه ولم يبدل حكماً لخوف أو طمع ، لكن يجعل كتاب اللّه مرآته ونصب عينيه ويحكم بما فيه . وقال رسـول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : « يؤتى بالـولاة يوم القيـامة فيقـول اللّه جلّ وعـلا : « **أنتم كنتم رعـاة خليقتي وخزنـة ملكي في أرضي** » . ثم يقـول لأحـدهم : « **لم ضربت عبادي فوق الحد الذي أمرت بـه** » . فيقول : يـا رب لأنهم عصوك وخالفوك . فيقول جلّ جـلاله : « **لا ينبغي أن يسبق غضبـك غضبي** » . ثم يقول للآخر : « **لم ضربت عبادي أقل من الحد الذي أمرت به** » ؟ فيقول : يـا رب رحمتهم . فيقول تعـالى : « **كيف تكون أرحم مني خـذوا الذي زاد والذي نقص فاحشوا بهما زوايا جهنم** » .

قـال حذيفـة بن اليمان : أنـا لا أثني على أحد من الـولاة سـواء كـان صالحاً أو غير صالح ، لأني سمعت رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يقول : « يؤتى بالولاة العادلين والظالمين يـوم القيامـة فيوقفـون على الصراط فيـوحي اللّه الى الصراط أن ينفضهم الى النار مثل من جار في الحكم أو أخـذ رشوة على القضـاء أو أعـار سمعـه لأحـد الخصمين دون الآخـر ، فيسقـطون من الصراط فيهوون سبعين سنة في النار حتى يصلوا الى قـرارها . وقد جاء في الخبر أن داود عليه السلام كان يخرج ليلاً متنكراً بحيث لا يعرفه أحد ، وكان يسأل كل من يلقاه عن حال داود سراً ، فجاءه جبريل في صورة رجل فقال له داود : ما تقول في داود ؟ فقال : نعم العبد ، إلا أنه يأكل من بيت المال ولا يأكل من كدّه وتعب يديه . فعاد داود الى محـرابه بـاكياً حـزيناً وقـال : إلٰهي علمني صنعة آكل بها من كدي وتعب يدي . فعلمه اللّه تعالى صنعة الزرد .

وكـان عمر بن الخـطاب يخرج كـل ليلة يطوف مـع العسس حتى يرى خللاً يتداركه وكان يقول : لو تركت عنزاً جرباء على جانب سـاقية لم تـدهن لخشيت أن أسئل عنها في القيامة . فانظر أيهـا السلطان الى عمر مع احتياطه وعدله وما وصل أحد الى تقواه وصـلاته كيف يتفكـر ويتخوف من أهـوال يوم القيامة وأنت قد جلست لاهياً عن أحوال رعيتك غافلاً عن أهل ولايتك .

قال عبد اللّه بن عمر وجماعة من أهل بيته : كنا ندعو اللّه أن يرينا عمر في المنام ، فرأيته بعد اثني عشر كأنه قد اغتسل وهو متلفع فقلت : يا أمير المؤمنين كيف وجدت ربك وبأي حسناتك جازاك ؟ فقال : يا عبد اللّه كم لي منذ فارقتكم ؟ فقلت : إثنتا عشرة سنة . فقال : منذ فارقتكم في الحساب وخفت أن أهلك إلا أن اللّه غفور رحيم ، جواد كريم . فهذا حال عمر ولم يكن له من دنياه شيء من أسباب الولاية سوى درة .

حكاية : أرسل قيصر ملك الروم رسولاً الى عمر بن الخطاب لينظر أحواله ويشاهد فعاله ، فلما دخل المدينة سأل أهلها وقال : أين ملككم ؟ قالوا : ليس لنا ملك ، بل لنا أمير قد خرج الى ظاهر المدينة . فخرج الرسول في طلبه فوجده نائماً في الشمس على الأرض فوق الرمل الحار ، وقد وضع درته كالوسادة تحت رأسه والعرق يسقط منه الى أن بل الأرض ، فلما رآه على هذه الحالة وقع الخشوع في قلبه وقال : رجل تكون جميع ملوك الأرض لا يقر لهم قرار من هيبته ، وتكون هذه حالة ، ولكنك يا عمر عدلت فأمنت فنمت وملكنا يجور لا جرم أنه لا يزال ساهراً خائفاً . أشهد أن دينكم لدين الحق ولولا أني أتيت رسولاً لأسلمت ، ولكن سأعود بعد هذا وأسلم .

أيها السلطان خطر الولاية عظيم ، وخطبها جسيم ، والشرح في ذلك طويل ، ولا يسلم الوالي الا بمقاربة علماء الدين ليعلموه طرق العدل ويسهلوا عليه خطر هذا الأمر .

* * *

الأصل الثاني

أن يشتاق أبداً الى رؤية العلماء ويحرص على استماع نصحهم ، وأن يحذر من علماء السوء الذين يحرصون على الدنيا فإنهم يثنون عليك ويغرونك ويطلبون رضاك طمعاً فيما في يديك من خبث الحطام ووبيل

الحرام ، ليحصلوا منه شيئاً بالمكر والحيل . والعالم هو الذي لا يطمع فيما عندك من المال ، ومنصفك في الوعظ والمقال . كما يقال أن شقيقاً البلخي دخل على هارون الرشيد فقال له : أنت شقيق الزاهد ؟ فقال : أنا شقيق ولست بزاهد . فقال له : أوصني . فقال : إن الله تعالى قد أجلسك مكان الصديق ، وأنه يطلب منك مثل صدقه ، وأنه أعطاك موضع عمر بن الخطاب الفاروق ، وأنه يطلب منك الفرق بين الحق والباطل مثله ، وأنه أقعدك موضع عثمان بن عفان ذي النورين وهو يطلب منك مثل حيائه وكرمه ، وأعطاك موضع علي بن أبي طالب وهو يطلب منك العلم والعدل كما يطلب منه . فقال له : زدني من وصيتك . فقال : نعم . اعلم أن لله تعالى داراً تعرف بجهنم ، وأنه قد جعلك بواب تلك الدار وأعطاك ثلاثة أشياء بيت المال والسوط والسيف ، وأمرك أن تمنع الخلق من دخول النار بهذه الثلاثة فمن جاء محتاجاً فلا تمنعه من بيت المال ، ومن خالف أمر ربه فأدبه بالسوط ، ومن قتل نفساً بغير حق فاقتله بالسيف بإذن ولي المقتول ، فإن لم تفعل ما أمرك فأنت الزعيم لأهل النار ، والمتقدم الى دار البوار . فقال له : زدني . فقال : إنما مثلك كمثل معين الماء ، وسائر العلماء في العالم كمثل السواقي ، فإذا كان المعين صافياً لا يضر كدر السواقي ، وإذا كان المعين كدراً لا ينفع صفاء السواقي .

حكاية : خرج هارون الرشيد والعباس ليلاً إلى زيارة الفضيل بن عياض ، فلما وصلا الى بابه وجداه يتلو هذه الآية : ﴿ أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾[1] الآية . ومعناها : أيظن الذين اكتسبوا الخطايا ويعملون الأعمال المذمومة أن نسوي بينهم في الآخرة ، وبين الذين يعملون الخيرات وهم مؤمنون . كلا ساء ما يحكمون . فقال هارون : إن كنا جئنا للموعظة فكفى بهذه موعظة . ثم أمر العباس أن يطرق عليه الباب فطرق بابه فقال : افتح الباب لأمير المؤمنين

---

(١) سورة الجاثية ، الآية ٠ ٢١

فقال الفضيل : ما يصنع عندي أمير المؤمنين ؟ فقال : أطِعْ أمير المؤمنين وافتحِ الباب . وكانَ ليلاً والمصباح يتقد فأطفأه ، وفتح الباب ، فدخل الرشيد وجعل يَطوف بيده لِيصافح بها الفضيل ، فلما وقعت يده عليه قال : الويل لهذه اليد الناعمة ، إن لم تنج من العذاب في القيامة . ثم قال له : يا أمير المؤمنين استعد لجواب الله تعالى ، فانه يوقفك مع كل واحد مسلم على حدة يطلب منك إنصافك اياه . فبكى هارون الرشيد بكاء شديداً وضمه الى صدره . فقال له العباس : مهلاً يا فضيل فقد قتلت أمير المؤمنين . فقال الفضيل : يا هامان أنت وقومك أهلكتموه ، وتقول لي مهلاً فقد قتلته . فقال الرشيد للعباس : ما جعلك هامان إلا وجعلني فرعون . ثم وضع الرشيد بين يديه ألف دينار وقال له : هذه من وجه حلال من صداق أمي وميراثها . فقال له الفضيل : أنا آمرك أن ترفع يديك عما فيها وتعود الى خالقك وأنت تلقيه إليّ . فلم يقبلها وخرج من عنده .

نكتة : سأل عمر بن عبد العزيز محمد بن كعب القرظي فقال : صف لي العدل . فقال : كل مسلم أكبر منك سناً فكن له ولداً ، ومن كان أصغر منك فكن له أباً ، ومن كان مثلك فكن له أخاً ، وعاقب كل مجرم على قدر جرمه ، وإياك أن تضرب مسلماً سوطاً واحداً على حقد منك فإن ذلك يصيرك الى النار .

نكتة : حضر بعض الزهاد بين يدي خليفة ، فقال له : عظني . فقال : يا أمير المؤمنين إني سافرت الصين وكان ملك الصين قد أصابه الصمم وذهب سمعه فسمعته يقول يوماً وهو يبكي : والله ما أبكي لزوال سمعي وإنما أبكي لمظلوم يقف ببابي يستغيث فلا أسمع استغاثته ، ولكن الشكر لله إذ بصري سالم . وأمر منادياً ينادي ألا كل من كانت له ظلامة فليلبسَ ثوباً أحمر . فكان يركب الفيل فكل من رأى عليه ثوباً أحمر دعاه واستمع شكواه وأنصفه من خصمائه . فانظر يا أمير المؤمنين الى شفقة ذلك الكافر على عباد الله وأنت مؤمن من أهل بيت النبوة فأنظر كيف تريد أن تكون شفقتك على رعيتك .

نكتة أخرى : حضر أبو قلابة مجلس عمر بن عبد العزيز فقال له : عظني قال : من عهد آدم الى وقتنا هذا لم يبق خليفة سواك . فقال : زدني . فقال : أنت أول خليفة يموت . فقال : زدني . فقال : إن كان الله معك فممن تخاف وإن لم يكن معك فإلى من تلتجىء . قال : حسبي ما قلت .

حكمة : كان سليمان بن عبد الملك خليفة فتفكر يوماً وقال : قد تنعمت في الدنيا طويلاً فكيف يكون حالي في الآخرة ؟ وأتى إلى أبي حازم ، وكان عالم أهل زمانه وزاهد أوانه ، وقال : أنفذ لي شيئاً من قوتك الذي تفطر عليه . فأنفذ له قليلاً من نخالة وقد شواها ، فقال : هذا فطوري . فلما رأى سليمان ذلك بكى وأثر في قلبه الخشوع تأثيراً كبيراً فصام ثلاثة أيام وطوى ، ثم أفطر الليلة الثالثة على تلك النخالة المشوية ، فيقال إنه في تلك الليلة تغشى أهله فكان منها عبد العزيز وجاء منه عمر بن عبد العزيز . وكان واحد زمانه في عدله وإنصافه وزهده وإحسانه ، وكان على طريقة عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وقيل أن ذلك ببركة نيته وصيامه وأكله من ذلك الطعام .

نكتة : سئل عمر بن عبد العزيز : ما كان سبب توبتك ؟ قال : كنت أضرب يوماً غلاماً فقال لي : اذكر الليلة التي تكون صبيحتها القيامة ، فعمل ذلك الكلام في قلبي .

نكتة أخرى : رأى بعض الأكابر هارون الرشيد في عرفات وهو حافٍ حاسر قائم على الرمضاء الحارة ، وقد رفع يديه وهو يقول : إلّهي أنت أنت وأنا أنا الذي دأبي كل يوم أعود الى عصيانك ودأبك أن تعود اليّ برحمتك . فقال بعض الكبراء : انظروا الى تضرع جبار الأرض بين يديّ جبار السماء .

نكتة أخرى · سأل عمر بن عبد العزيز يوماً أبا حازم الموعظة فقال له أبو حازم : إذا نمت فضع الموت تحت رأسك وكل ما أحببت أن يأتيك الموت وأنت عليه مصرّ فالزمه ، وكل ما لا تريد أن يأتيك الموت وأنت عليه فاجتنبه ، فربما كان الموت منك قريباً . فينبغي لصاحب الولاية أن يجعل

هذه الحكاية نصب عينيه ، وأن يقبل المواعظ التي وعظ بها غيره فكلما رأى عالماً سأله أن يعظه ، وينبغي للعلماء أن يعظوا الملوك بمثل هذه المواعظ ولا يغرّوهم ولا يدّخروا عنهم كلمة الحق وكل من غرّهم فهو مشارك لهم ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

* * *

الأصل الثالث من ذلك

ينبغي أن لا تقنع برفع يدك عن الظلم ، لكن تهذّب غلمانك وأصحابك وعمالك ونوابك ، فلا ترضى لهم بالظلم فإنك تُسأل عن ظلمهم كما تُسأل عن ظلم نفسك .

نكتة : كتب عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه ، إلى عامله أبي موسى الأشعري : « أما فإن أسعد الولاة من سعدت به رعيته ، وإن أشقى الولاة من شقيت به رعيته . فإياك والتبسّط فإن عمالك يقتدون بك ، وإنما مثلك كمثل دابة رأت مرعى مخضراً فأكلت كثيراً حتى سمنت فكان سمنها سبب هلاكها لأنها بذلك السمن تذبح وتؤكل » . وفي التوراة كل ظلم علمه السلطان من عماله فسكت عنه كان ذلك الظلم منسوباً إليه وأخذ به وعوقب عليه .

وينبغي للوالي أن يعلم أنه ليس أحدٌ أشد غبناً ممن باع دينه وآخرته بدنيا غيره ، وأكثر الناس في خدمة شهواتهم ، فانهم يستنبطون الحيل ليصلوا الى مرادهم من الشهوات . وكذلك العمال لأجل نصيبهم من الدنيا يغرون الوالي ويحسنون الظلم عنده فيلقونه في النار ليصلوا الى أغراضهم ، وأي عدو أشد عداوة ممن يسعى في هلاكك وهلاك نفسه لأجل درهم يكتسبه ويحصله . وفي الجملة ينبغي لمن أراد حفظ العدل على الرعية أن يرتّب غلمانه وعماله للعدل ، ويحفظ أحوال العمار ، وينظر فيها كما ينظر في أحوال أهله وأولاده ومنزله ، ولا يتم له ذلك إلا بحفظ العدل أولاً من باطنه ؛ وذلك أن لا يسلّط شهوته وغضبه على عقله ودينه ، ولا يجعل عقله ودينه

أسرى شهوته وغضبه بل يجعل شهوته وغضبه أسرى عقله ودينه .

ويجب أن يعلم أن العقل من جوهر الملائكة ومن جند الباريء ، جلّت قدرته ، وأن الشهوة والغضب من جند الشيطان . فمن يجعل جند اللّه وملائكته أسرى جند الشيطان كيف يعدل في غيرهم ؟ وأول ما تظهر شمس العدل في الصدر ثم ينشر نورها في أهل البيت وخواص الملك فيصل شعاعها الى الرعية ، ومن طلب الشعاع في غير الشمس فقد طلب المحال ، وطمع فيما لا ينال .

واعلم أيها السلطان وتبيّن أن ظهور العدل من كمال العقل ، وكمال العقل أن ترى الأشياء على ما هي ، وتدرك حقائق باطنها ولا تغتر بظاهرها . مثلاً إذا كنت تجور على الناس لأجل الدنيا فينبغي أن تنظر أي شيء مقصودك من الدنيا ، فإن كان مقصودك من الدنيا أكل الطعام الطيب فيجب أن تعلم أن هذه شهوة بهيمة في صورة آدمي ، لأن الشهوة الى الأكل من طباع البهائم ، وإن كان مقصودك لبس التاج فإنك امرأة في صورة رجل لأن التزين والرعونة من أعمال النساء ، وإن كان مقصودك أن تمضي غضبك على أعدائك فأنت أسد أو سبع في صورة آدمي لأن إحضار الغضب للقلب من طباع السباع ، وإن كان مقصودك أن تخدمك الناس فأنت جاهل في صورة عاقل فإنك لو كنت عاقلاً لعلمت أن الذين يخدمونك إنما هم خدم وغلمان لبطونهم وفروجهم وشهواتهم وإن خدمتهم وسجودهم لانفسهم لا لك وعلامة ذلك أنهم لو سمعوا إرجافاً بأن الولاية تؤخذ منك وتعطى لسواك لأعرضوا باجمعهم عنك وفي أي موضع علموا الدرهم خدموا وسجدوا لذلك الموضع ، فعلى الحقيقة ليست هذه خدمة وإنما هي ضحكة .

والعاقل من نظر أرواح الأشياء وحقائقها ولا يغتر بصورها ، وحقيقة هذه الأعمال ما ذكرناه وأوضحناه ، فكل من لم يتيقن ذلك فليس بعاقل ومن لم يكن عاقلاً لم يكن عادلاً ومن لم يكن عادلاً مأواه جهنم ، فلهذا السبب كان رأس مال السعادات كلها العقل .

* * *

الأصل الرابع

إن الوالي في الأغلب يكون متكبـراً ومن التكبر يحـدث عليه السخط الداعية إلى الانتقام ، والغضب غول العقل وعدوه وآفته ، وقد ذكرنا ذلك في كتاب الغضب في ربع المهلكات . وإذا كان الغضب غـالباً فينبغي أن يميـل في الأمور الى جانب العفو ويتعود الكـرم والتجاوز فـإذا صار ذلـك عادة لـك مـاثلت الأنبياء والأوليـاء ، ومتى جعلت إمضاء الغضب عـادة مـاثلت السبـاع والدواب .

حكـاية : يقـال أن أبا جعفـر المنصور أمـر بقتل رجـل ، والمبـارك بن الفضـل حاضـر فقال : يـا أميـر المؤمنين إسمـع خبـراً قبـل أن تقتله : روى الحسن البصري عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إذا كان يوم القيامة وجمع الخلائق في صعيد واحد ، نـادى منادٍ من كـان له عنـد الله يد فليقم ، فـلا يقوم إلا من عفـا عن النـاس ، فقـال أطلقـوه فـأني قـد عفـوت عنـه » . وأكثر مـا يكون غضب الـولاة على من ذكرهـم وطـوّل لسـانـه عليهم فيسعون في سفك دمه .

قـال عيسى عليه السـلام ليحيى بن زكريـا عليهما السـلام : إذا ذكرك أحد بشيء وقال فيـك صحيحاً فـاشكر اللّه ، وإن قـال فيك كـذباً فـازددْ من الشكر ، فإنه يزيد في ديوان أعمالك وأنت مستريح ، يعني أن حسناته تكتب لك في ديوانك .

وذكر عند رسول الله صلى الله عليه وسلم رجـل فقيل إن فـلاناً رجـل قوي شجاع فقال : كيف ذاك ؟ فقالوا : يقوى بكل أحد وما صارع أحـداً إلا صـرعه فقـال عليه الصـلاة والسلام : « القـوي الشجاع من قهـر نفسه لا من صرع غيره » .

وقال عليه الصلاة والسلام : « ثلاث من كانت فيه فقد كمل إيمانـه من كظم غيظه وأنصف في حال رضاه وغضبـه وعفا عنـد المقدرة » . وقـال عمر ابن الخطاب : لا تعتمد على خلق رجل حتى تجربه عند الغضب .

حكاية : قيل عن الحسين بن علي رضي الله عنهما أنه بلغه عن رجل كلام يكرهه فأخذ طبقاً مملوأً من التمر الجني وحمله بنفسه الى دار ذلك الرجل فطرق الباب فقام الرجل وفتح الباب فنطر الى الحسين ومعه الطبق فقال : وما هذا يا ابن بنت رسول الله ؟ قال : خذه فأنه بلغني عنك إنك أهديت إليّ حسناتك فقابلت بهذا .

حكاية أخرى : خرج زين العابدين علي بن الحسين رضي الله عنه الى المسجد فسبّه رجل فقصده غلمانه ليضربوه ويؤذوه فنهاهم زين العابدين وقال : كفوا أيديكم عنه ، ثم التفت الى ذلك الرجل وقال : يا هدا أنا أكثر مما تقول وما لا تعرفه مني أكثر مما قد عرفته فإن كان لك حاجة في ذكره ذكرته لك ، فخجل الرجل واستحيى فخلع عليه زين العابدين قميصه وأمر له بألف درهم فمضى الرجل وهو يقول : أشهد أن هذا الشاب ولد رسول الله صلى اللّه عليه وسلم .

ويروى أن زين العابدين استدعى غلاماً له وناداه مرتين فلم يجبه فقال له زين العابدين : أماسمعت ندائي ؟ فقال : بلى قد سمعت ، قال : فما حملك على تركك إجابتي عليّ ؟ قال : أمنت منك وعرفت طهارة أخلاقك فتكاسلت ، فقال : الحمد لله الذي أمن مني عبدي . ويروى عنه أنه كان له غلام فعمد الى شاة فكسر رجلها فقال له : لم فعلت هذا ؟ قال : فعلته غمداً لأغيظك ، قال : ما أنا أغيظ من الذي علمك وهو إبليس إذهب فأنت حر لوجه اللّه تعالى . ويروى أن رجلاً سبه فقال له زين العابدين : يا هذا بيني وبين جهنم عقبة إن أنا أجزتها فما أبالي وإن أنا لم أجزها فأنا أكثر مما تقول .

وقال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : « قد يبلغ الرجل بحلمه وعفوه درجة الصائم القائم ، ويكون رجل يكتب في جريدة الجائرين ولا ولاية له ولا حكم إلا على أهل منزله » . ويروى أن إبليس رأى موسى عليه السلام فقال : يا موسى أعلمك ثلاثة أشياء وتطلب لي من اللّه حاجة واحدة ، فقال : وما الثلاثة أشياء ؟ فقال : يا موسى إحذر من الغضب والحرد ، فإن

الحَردان يكون خفيف الرأس وأنا ألعب به كما يلعب الصبيان بالكرة ، واحذر من البخل فإني أفسد على البخيل دنياه ودينه ، واحذر من النساء فإني ما نصبت للخلق شركاً اعتمد عليه مثل النساء .

وقال عليه الصلاة والسلام : « من كظم غيظه وهو قادر على أن لا يكظمه ملأ اللّه قلبه بالايمان ، ومن لم يلبس ثوباً طويلاً خوفاً من التكبر والخيلاء ألبسه اللّه تعالى حلل الكرامة » . وقال عليه الصلاة والسلام : « ويل لمن يغضب وينسى غضب اللّه » . وجاء رجل الى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : علمني عملاً أدخل به الجنة ، فقال : لا تغضب . قال : ثم ماذا ؟ قال : استغفر اللّه قبل صلاة العصر سبعين مرة لتكفر عنك ذنوب سبعين سنة ، فقال : ما لي ذنوب سبعين سنة ، فقال : لأمك ، قال : وما لأمي ذنوب سبعين سنة ، قال : لأبيك ، قال : وما لأبي ذنوب سبعين سنة قال : لأخوتك ؟ قال : نعم .

وروى ابن مسعود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقسم يوماً مالاً فقال له رجل : ما هذه القسمة ؟ يعني أنها ليست بإنصاف ، فحكيت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فغضب واحمرّ وجهه ولم يقل شيئاً سوى أن قال : رحم اللّه أخي موسى فإنه أوذي فصبر على الأذى .

فهذه الجملة من الحكايات والأخبار تقنع في نصيحة الولاة إذا كان أصل إيمانهم ثابتاً أثر فيه هذا القدر ، فإن لم يؤثر ما ذكرناه فيهم فقد أخلوا قلوبهم من الإيمان ، وإنه ما بقي من إيمانهم إلا الحديث باللسان . عامل يتناول من أموال المسلمين في كل سنة كذا وكذا ألف درهم ويبقى في ذمته ، ويطالب بها في القيامة ويحصل بمنفوعها ويبوء بالعقوبة والعذاب يوم المرجع والمآب كيف تؤثر عنده هذه الأسباب ؟ وهذا نهاية الغفلة ، وقلة الدين وضعف النحلة .

* * *

الأصل الخامس

إنك في كل واقعة تصل إليك وتعرض عليك تقدر أنك واحد من جملة الرعية ، وإن الوالي سواك فكل ما لا ترضاه لنفسك لا ترضى به لأحد من المسلمين ، وإن رضيت لهم بما لا ترضاه لنفسك فقد خنت رعيتك وغششت أهل ولايتك .

روي أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم كان قاعداً يوم بدر في ظل فهبط الأمين جبريل عليه السلام فقال : يا محمد أتقعد في الظل وأصحابك في الشمس . فعوتب بهذا القدر . وقال عليه الصلاة والسلام : « من أحب النجاة من النار والدخول الى الجنة فينبغي أن يكون بحيث إذا جاءه الموت وجد كلمة الشهادة بلسانه ، وكل ما لا يرضى به لنفسه لا يرضى به لأحد من المسلمين » . وقال عليه الصلاة والسلام : « من أصبح في قلبه همة سوى اللّه فليس من اللّه في شيء ومن لم يشفق على المسلمين فليس منهم » .

الأصل السادس

أن لا تحتقر انتظار أرباب الحوائج ووقوفهم ببابك ، واحذر من هذا الخطر ، ومتى كان لأحد من المسلمين إليك حاجة فلا تشتغل عن قضائها بنوافل العبادات فإن قضاء حوائج المسلمين أفضل من نوافل العبادات .

نكتة : كان يوماً عمر بن عبد العزيز يقضي حوائج الناس فجلس إلى الظهر وتعب فدخل بيته ليستريح من تعبه فقال له ولده : وما الذي يؤمنك أن يأتيك الموت في هذه الساعة وعلى بابك منتظر حاجة وأنت مقصر في حقه ؟ فقال : صدقت . ونهض فعاد الى مجلسه .

* * *

الأصل السابع

أن لا تعود نفسك الاشتغال بالشهوات من لبس الثياب الفاخرة وأكل الأطعمة الطيبة ، لكن تستعمل القناعة في جميع الأشياء فلا عدل بلا قناعة .

نكتة : سأل عمر بن الخطاب ، رضي اللّه عنه ، بعض الصالحين فقال : هل رأيت من حالي شيئاً تكرهه؟ قال : سمعت أنك وضعت على مائدتك رغيفين وأن لك قميصين أحدهما لليل والآخر للنهار ، فقال : غير هذين شيء ؟ فقال : لا . قال : واللّه إن هذين لا يكونان أبداً .

* * *

الأصل الثامن

إنك متى أمكنك أن تعمل الأمور بالرفق واللطف فلا تعملها بالشدة والعنف . قال صلى الله عليه وسلم : « كل والٍ لا يرفق برعيته لا يرفق اللّه به يوم القيامة » . ودعا عليه الصلاة والسلام يوماً : « اللهم الطف بكل والٍ يلطف برعيته واعنف على كل والٍ يعنف على رعيته » . وقال عليه الصلاة والسلام : « الولاية والإمرة حسنتان لمن قام بحقهما سيئتان لمن قصر فيهما » .

نكتة : كان هشام بن عبد الملك من خلفاء بني أمية فسأل يوماً أبا حازم وكان من العلماء : ما التدبير في النجاة من أمور الخلافة ؟ قال : أن تأخذ الدرهم الذي تأخذه من وجه حلال ، وان تضعه في موضع حق . قال : من يقدر على هذا ؟ قال : من يرغب في نعيم الجنان ، ويرهب من عذاب النيران .

* * *

الأصل التاسع

أن تجتهد أن ترضى عنك رعيتك بموافقة الشرع . قال النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه : « خير أمتي الذين يحبونكم وتحبونهم ، وشر أمتي الذين يبغضونكم وتبغضونهم ويلعنونكم وتلعنونهم ، وينبغي للوالي أن لا يغتر بكل من وصل إليه وأثنى عليه ، وأن لا يعتقد أن الرعية مثله راضون عنه ، وأن الذي يثني عليه إنما يفعل ذلك من خوفه منه ، بل ينبغي ترتيب معتمدين يسألون عن حاله من الرعية ليعلم عيبه من ألسنة الناس » .

* * *

الأصل العاشر

أن لا يطلب رضا أحد من الناس بمخالفة الشرع ، فإن من سخط بخلاف الشرع لا يضر سخطه . كان عمر ابن الخطاب ، رضي اللّه عنه ، يقول : إني لأصبح ونصف الخلق علي ساخط ، ولا بد لكل من يؤخذ منه الحق أن يسخط ، ولا يمكن أن يرضى الخصمين ، وأكثر الناس جهلاً من ترك رضا الحق لأجل رضا الخلق .

كتب معاوية الى عائشة ، رضي اللّه عنهما ، أن عظيني عظة مختصرة ، فكتبت اليه تقول : سمعت رسول الله صلى اللّه عليه وسلم يقول: « من طلب رضا اللّه تعالى في سخط الناس رضي اللّه عنه وأرضى عنه الناس ، ومن طلب رضا الناس بسخط اللّه تعالى سخط اللّه عليه وأسخط الخلق عليه ، مثل أن لا يأمرهم بالطاعة ولا يعلمهم أمور الدين ويطعمهم الحرام ويمنع الأجير أجرته والمرأة مهرها ، سخط اللّه عليه وأسخط عليه الناس» .

بيان العينين اللتين هما مشرب شجرة الإيمان

وإذ قد عرفت أصول شجرة الإيمان ، وعرفت فروعها ، فاعلم أن هناك عينين للعلم تستمد الشجرة منهما الماء .

العين الأولى : في معرفة الدنيا ولم أوجد فيها الإنسان .

إعلم يا سلطان العالم أن الدنيا منزلة وليست بدار قرار ، والإنسان مسافر فأول منازله بطن أمه وآخر منازله لحد قبره ، وإنما وطنه وقراره ومكثه واستقراره بعدها . فكل سنة تنقضي من الإنسان فكالمرحلة ، وكل شهر ينقضي منه فكاستراحة المسافر في طريقه ، وكل أسبوع فكقرية تلقاه ، وكل يوم فكفر سوف يقطعه ، وكل نفس كخطوة يخطوها ، وبقدر كل نفس يتنفسه يقرب من الآخرة . وهذه الدنيا قنطرة فمن عمر القنطرة واستعجل بعمارتها فني فيها زمانه ، ونسى المنزلة التي هي مصيره ومكانه ، وكان جاهلاً غير عاقل ، وإنما العاقل الذي لا يشتغل في دنياه إلا لاستعداده لمعاده ، ويكتفي منها بقدر الحاجة ومهما جمعه فوق كفايته كان سماً ناقعاً ، ويتمنى أن تكون جميع خزائنه وسائر ذخائره رماداً وتراباً لا فضة ولا ذهباً ، ولو جمع مهما جمع فإن نصيبه ما يأكله ويلبسه لا سواه ، وجميع ما يخلفه يكون عليه حسرة وندامة ويصعب عليه نزعه عند موته فحلالها حساب ، وحرامها عذاب ، إن كان قد جمع المال من حلال طلب منه الحساب ، وإن كان قد جمع من حرام وجب عليه العذاب ، وكان أشد عليه من حسرته حلول العذاب في حفرته ، ومع هذا جميعه إذا كان إيمانه صحيحاً سالماً لحضرة الديان ، فلا وجه ليأسه من الرحمة والرضوان ، فإن اللّه جواد كريم ، غفور رحيم .

واعلم أيها السلطان أن راحة الدنيا أيام قلائل وأكثرها منغص بالتعب ، مشوب بالنصب ، وبسببها تفوت راحة الآخرة التي هي الدائمة الباقية

والملك الـذي لا نهايـة له ولا فنـاء ، فيسهل على العـاقل أن يصبر في هـذه الأيام القلائل لينال راحة دائمة بلا انقضاء .

نكتة : لو كـان للإنسـان معشوقـة وقيل لـه إن صبرت عنهـا هذه الليلة سلمت اليك ألف ليلة بلا تعب ولا نصب ، وإن كنت تزورها فـإنك لا تـراها أبداً ، فإنه كان عشقه لها عظيماً وصبره عنها أليماً لكن يهون عليه صبره على البعـد عنهـا ليلة واحـدة لينـال الآخـرة ، بـل الـدنيـا ليست بشيء في جنب الآخرة ، ولا شبه بينهما لأن الآخرة لا نهاية لها ، ولا يُدرك بالوهم طولها .

وقد أفردنـا في صفة الـدنيا كتـاباً لكنـا نقتنع الآن بمـا نورده من حـال الدنيا ، وقد أوضحنا حالها على عشرة أمثلة .

المثال الأول في بيان سحر الدنيـا : وقد قـال صلى اللّه عليه وسلم : « احذروا الدنيا فإنها أسحر من هاروت وماروت ؛ وأول سحـرها أنهـا تريـك أنها ساكنة عندك مستقـرة معك ، وإذا تـأملتها خلتهـا وهي هاربـة منك سـافرة عنك على الدوام ، وإنما تتسلسل على التدريج ذرة ذرة ونفساً نفساً » . ومثل الدنيا مثل الظل إذا رأيته حسبته ساكناً وهو يمر دائماً ، وكذلك عمر الإنسـان يمر بالتدريج على الدوام وينقص كل لحظة ، وكذلك الدنيـا تودعـك وتهرب عنك وأنت غافـل لا تخبر وذاهـل لا تشعر ، ولـذلك قـال بعض الشعراء في المعنى .

وما الدنيا وإن كثرت وطـابت   بهـا اللذات إلا كـالسـرابِ
يمـر نعيمهـا بعـد التـداذ   ويمضي ذاهبـاً مـر السحـابِ

المثال الثاني من ذلك : ومن سحرها أنها تـظهر لـك محبة لتعشقهـا ، وتريك أنها لك مساعدة وأنها لا تنتقل عنك الى غيرك ثم تعود عدوة لك على غفلة . ومثلها مثل امرأة فاجرة خداعة للرجال حتى إذا رأوها عشقوها ودعتهم الى بيتها فاغتالتهم وأهلكتهم .

نكتة : رأى عيسى عليه السـلام الدنيـا في بعض مكاشفـاته وهي على صورة عجوز هرمة فقـال لها : كم كـان لك من زوج ؟ فقـالـت : لا يحصون

كثرة ، فقال عيسى : ماتوا عنك أم طلقوك ؟ فقالت : بل أنا قتلتهم وأفنيتهم ، فقال : يا عجباً منك ومن دواهيك هذا صنعك بأهلك وهم فيك راغبون ، وعليك يقتتلون ، وبمن مضى لا يعتبرون .

المثال الثالث من ذلك : ومن سحرها أنها تزين ظاهرها بمحاسنها ، وتخفي محنتها وقواتلها في باطنها ، لتغر الجاهل بما يرى من ظاهرها ومثلها كمثل عجوز قبيحة المنظر تخفي وجهها وتلبس حسن الثياب وتتزين وتتجمل لتفتن الخلق من بعد فإذا كشفوا عنها غطاءها وخمارها ، والقوا عنها إزارها ندموا على محبتها لما شاهدوه من فضائحها ، وعاينوه من قبائحها . وقد جاء في الخبر أن الدنيا يؤتى بها يوم القيامة في صورة عجوز قبيحة مشوهة زرقاء العين وحشة الوجه قد كشّرت عن أنيابها ، فإذا رآها الخلائق قالوا نعوذ باللّه من هذه القبيحة المشوهة، فيقال لهم هذه الدنيا التي كنتم عليها تتحاسدون ولأجلها كنتم تتحاقدون وتسفكون الدماء بغير حق وتقطعون أرحامكم وتغترون بزخرفها، ثم يؤمر بها الى النار فتقول: إلّهي أين أحبابي فيؤمر بهم فيلقون في نار جهنم .

المثال الرابع من ذلك : ان الإنسان يحسب كم كان في الأزل قبل أن يوجد في الدنيا وكم يكون مدة عدمه بالموت وكم قدر هذه المدة التي بين الأبد والأزل وهي مدة حياته في الدنيا ، فيعلم أن مثال الدنيا كطريق المسافر أوله المهد ، وآخره اللحد ، وفيما بينهما منازل معدودة ، وأن كل سنة كمنزل وكل شهر كفرسخ ، وكل يوم كميل ، وكل نفس كخطوة وهو يسير دائماً فيبقى لواحد من طريقه فرسخ ولآخر أكثر وهو قاعد ذاهل ، وساكن غافل ، كأنه مقيم لا يبرح وقد اشتغل بتدبير أعمال لا يحتاج إليها بعد عشر سنين وربما يحصل بعد عشرة أيام تحت التراب .

المثال الخامس من ذلك : إعلم أن مثل الدنيا وما تتحف أهلها فيها بشهواتهم ولذاتهم من الأمور الفضائح التي يشاهدونها في الآخرة كمثل إنسان أكل فوق حاجته من طعام حلو سمين الى أن هاض وهاضت معدته فرأى فضيحته من هلاك معدته ونتونة نفسه وكره برازه وحاجته فندم بعد

ذهـاب لذتـه وبقاء فضيحتـه من هلاك معـدته . وكـذلك كلّمـا ألِف الإنسان لذات الدنيا وتبين له ذلك كانت عاقبته أصعب ، ويبتلي بمثل ذلك عند نزعه وخـروج روحه كمن كـان له نِعم كثيـرة وذهب وفضة وجـوار وغلمـان وكـروم وبساتين وفارقه كان ألم فراق روحه عليه أصعب ممن ليس له الا القليـل فإن ذلك الألم والعذاب لا يزول بالمـوت بل يـزيد لأن تلك المحبـة صفة القلب والقلب بحاله لا يموت .

المثال السادس من ذلـك : إعلم أيها السلطان أن أمـور الدنيـا أول ما تبدو يظنها الإنسان قريبة مختصرة وأن شغلها لا يدوم ، وربما كـان من بعض أشغالها وأحوالها أمر يتسلسل منه أمر وينفق فيـه بضاعـة العمر ، فـإن عيسى عليـه السلام قـال : طالب الـدنيا كشـارب ماء البحـر كلما ازداد شـرباً ازداد عطشاً ولهباً فلا يزال يشرب حتى يهلك ولا يروى . قال النبي صلى اللّه عليه وسلم : « كما لا يمكن من خاض البحر أن لا ينـاله البلل كذلك لا يمكن مـن دخل في أمور الدنيا أن لا يتدنس » .

المثال السابع من ذلك : مثل من حصل في الـدنيا كمثـل ضيف دُعي الى مائدة ومن عادة المضيف أن يزين داره للأضياف ويـدعو إليهـا قومـاً بعد قـوم ، وفوجـاً بعد فـوج ، ويضـع بين يـدي أضيـافـه طبقـاً من ذهب مملوءاً بالجوهـر ومجمرة من فضـة من عود وبخـور ليتطيبـوا ويتبخروا وينـالهم طيب رائحتها ، ثم يعاودون الطبق والمجمرة بحالهما لمالكهما ليـدعو غيـرهم كما دعاهم . فمن كان عاقلاً عارفاً بـرسم الدعـوات وضع من ذلـك البخور على النار وتطيب وانصرف ولم يطمع أن يتناول الطبق والمجمرة وتركهما بطيبة من قلبه ، وشكر لصاحب البيت وربه . ومن كان أبله أحمق توهم أن ذلك الطبق والمجمرة قد أعـدا له وهـم يـريدون أن يهبـوهما لـه فلما همّ بـالخروج أخـذ الطبق والمجمرة فلم يمكن من الخروج بهما واستعادوهما منـه فضاق صـدره وتعب قلبه ، وطلب الأقالة إذ ظهر ذنبه ، فالـدنيا كمثـل طريق المسـافر ودار الضيافة ليتزودوا منها لطريقهم ولا يطمعوا في الدار .

المثـال الثامن : مثـل أهل الـدنيا واشتغـالهم بأشغـالهـا ، واهتمـامهم

بأحوالها ، ونسيان الآخرة وإهمالها كمثل قوم ركبوا مركباً في البحر فعدلوا الى جزيرة لأجل الطهارة وقضاء الحاجة ، فنزلوا الى الجزيرة والملّاح يناديهم لا تطيلوا المكث لئلا يفوت الوقت ولا تشتغلوا بغير الوضوء والصلاة فإن المركب سائر ، فمضوا وتفرّقوا في الجزيرة وانتشروا في نواحيها ، فالعقلاء منهم لم يمكثوا وشرعوا في الطهارة وعادوا إلى المركب فأصابوا الأماكن خالية فجلسوا في أطهر الأماكن وأوفقها وأرفعها .

ومنهم قوم نظروا الى عجائب تلك الجزيرة ووقفوا يتنزهون في زهرتها وثمارها ، وروضاتها وأشجارها ؛ ويسمعون طيب ترنّم أطيارها ، ويتعجبون من حصبائها الملونة وأحجارها ، فلما عادوا الى المركب لم يجدوا موضعاً ولا رأوا متسعاً فقعدوا في أضيق مواضعه وأظلمها .

ومنهم قوم لم يقنعوا بالنزهة ولم يقتصروا على الفرجة لكنهم جمعوا من تلك الحصباء الملونة ثم حملوها معهم الى المركب فلم يجدوا مكاناً ولا فرجة فقعدوا في أضيق المواضع وحملوا ما استصحبوا من تلك الأحجار على أعناقهم فلم يمضِ إلا يوم أو يومان حتى تغيرت ألوان تلك الأحجار واسودت وفاح منها أكره رائحة ولم يجدوا مخلصاً من الزحام ليلقوا ثقلها عن أعناقهم فندموا على ما فعلوا ، وحصلوا بثقل الأحجار على أعناقهم إذ كانوا بتحصيلها اشتغلوا .

ومنهم قوم وقفوا مع عجائب تلك الجزيرة وتنزهوا ، وفي الرجوع لم يتفكروا حتى سار المركب فبعدوا عنه وانقطعوا في أماكنهم وتخلفوا اذ لم يصيخوا الى المنادي ولم يسمعوا ، فمنهم من أكلته السباع ونهشته الضباع .

فالقوم المتقدمون هم القوم المؤمنون المتقون ، والقوم المتخلفون الهالكون هم الكفار المشركون ، الذين نسوا اللّه ونسوا الآخرة وسلموا كليتهم الى الدنيا وركنوا اليها كما قال عز من قائل : ﴿ ذلك بأنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة ﴾[1] أي ركنوا إليها . وأما الجماعة المتوسطون

---

(١) سورة النحل ، الآية ١٠٧

فهم العصاة الذين حفظوا أصل الإيمان لكنهم لم يكفوا أيديهم عن الدنيا فمنهم من تمتع بغناه ونعمته ومنهم من تمتع مع فقره وحاجته الى أن غلبت أوزارهم ، وكثرت أوساخهم وأوضارهم .

المثال التاسع : روى أبو هريرة أن النبي صلى اللّه عليه وسلم قال : «يا أبا هريرة أتريد أن أريك الدنيا؟» قلت: نعم يا رسول اللّه. فأخذ بيدي وانطلق حتى وقف بي على مزبلة فيها رؤوس الآدميين وبقايا عظام نخرة وخرق قد تمزقت وتلوثت بنجاسات الآدميين فقال: «يا أبا هريرة هذه الرؤوس التي تراها كانت مثل رؤوسكم مملوءة من الحرص والاجتهاد على جمع الدنيا . كانوا يرجون من طول الأعمار ما ترجون ، وكانوا يجدون في جمع المال وعمارة الدنيا كما تجدون ، فاليوم قد تغيرت عظامهم وتلاشت أجسامهم كما ترى ، وهذه الخرق كانت أثوابهم التي كانوا يتزينون بها وقت الرعونة والتجمل والتزين قد ألقتها الريح في النجاسات ، وهذه عظام دوابهم التي كانوا يطوفون أقطار الأرض على ظهورها ، وهذه النجاسات كانت أطعمتهم اللذيذة التي كانوا يحتالون في تحصيلها وينهبها بعضهم من بعض قد ألقوها عنهم بهذه الفضيحة التي لا يقربها أحد من نتنها ؛ فهذه جملة أحوال الدنيا كما تشاهد وترى فمن أراد أن يبكي على الدنيا فليبكِ فإنها موضع البكاء». قال أبو هريرة : فبكى جملة الحاضرين .

المثال العاشر : كان في زمن عيسى عليه السلام ثلاثة سائرين في طريق فوجدوا كنزاً فقالوا : قد جعنا فليمضِ واحد منا ويبتاع لنا طعاماً . فمضى أحدهم ليأتيهم بطعام فقال : الصواب أن أجعل لهما سماً قاتلاً في الطعام ليأكلا منه فيموتا وانفرد بالكنز دونهما ، ففعل ذلك وسم الطعام . واتفق الرجلان الآخران أنه إذا وصل إليهما قتلاه وانفردا بالكنز دونه . فلما وصل ومعه الطعام المسموم قتلاه وأكلا من الطعام فماتا . فاجتاز عيسى عليه السلام بذلك الموضع فقال للحواريين : هذه الدنيا فانظروا كيف قتلت هؤلاء الثلاثة وبقيت من بعدهم ، ويل لطلاب الدنيا من الدنيا .

العين الثانية معرفة النفس الأخير

إعلم يا سلطان العالم أن بني آدم طائفتان : طائفة نظروا الى شاهد حال الدنيا وتمسكوا بتأميل العمر الطويل ، وطائفة عقلاء جعلوا النفس الأخير نصب أعينهم لينظروا الى ماذا يكون مصيرهم وكيف يخرجون من الدنيا ويفارقونها وإيمانهم سالم وما الذي ينزل معهم من الدنيا في قبورهم وما الدي يتركونه لأعدائهم من بعدهم ويبقى عليهم وباله ونكاله ؟ وهذه الفكرة واجبة على الخلق وهي على الملوك وأهل الدنيا أوجب لأنهم كثيراً أزعجوا قلوب الخلائق وأنفذوا الى الناس الغلمان بالسيئات وأفزعوا الخليقة وأدخلوا في قلوبهم الرعب ، فإن بحضرة الحق تعالى غلاماً اسمه عزرائيل لا مهرب لأحد من مطالبته وتشتيته وكل موكلي الملوك يأخذون جعلهم ذهباً وفضة وطعاماً وصاحب هذا التوكيل لا يأخذ سوى الروح جعلاً وسائر موكلي السلاطين تنفع عندهم الشفاعة وهذا الموكل لا تنفع عنده شفاعة شافع ، وجميع الموكلين يمهلون من يوكلون اليه اليوم والليلة والساعة وهذا الموكل لا يمهل نفساً واحداً وعجائب أحواله كثيرة إلا أنّا نذكر من أحواله خمس حكايات .

* * *

الحكاية الأولى

وهو ما رواه وهب بن منبه وكان من علماء اليهود وأسلم ، روى أنه كان ملك عظيم أراد أن يركب يوماً في جملة أهل مملكته ويري الخلق عجائبه وزينته فأمر أمراءه وحجابه وكبراء دولته رتبة بالركوب ليظهر للناس سلطنته ، فأمر بإحضار فاخر الثياب وأمر بعرض خيوله المعروفة ، وعتاقه الموصوفة ، فاختار من جملتها جواداً يعرف بالسبق فركبه بالمركب والطوق المرصع بالجوهر وجعل يركض الحصان في عسكره ، ويفتخر بتيهه وتجبره ، فجاء إبليس فوضع فمه في منخره ونفخ هواء الكبر في أنف أنفته فقال في نفسه من في العالم مثلي ؟ وجعل يركض بالكبرياء ، ويزهو

بالخيلاء ، ولا ينظر إلى أحد من تيهه وكبره ، وعجبه وفخره ، فوقف بين يديه رجل عليه ثياب رثة فسلم عليه فلم يرد عليه سلامه فقبض على عنان فرسه فقال له الملك : إرفع يدك فإنك لا تدري بعنان من قد أمسكت ؟ فقال : لي إليك حاجة ، فقال : أصبر حتى أنزل ، فقال : حاجتي في هذه الساعة إليك لا عند نزولك فقال : اذكر حاجتك ، فقال : إنها سرٌ ولا أقولها إلا في أذنك ، فأصغى إليه بسمعه فقال : أنا ملك الموت أريد أن أقبض روحك ، فقال : أمهلني بقدر ما أعود الى بيتي وأودّع أولادي وزوجتي ، فقال : كلا لا تعود تراهم أبداً فإنك قد فنيت مدة عمرك ، وأخذ روحه وهو على طهر الفرس فخر ميتاً . وعاد ملك الموت من هناك فأتى رجلاً صالحاً قد رضي ربه عليه فسلم عليه فرد علية السلام فقال : لي إليك حاجة وهي سر ، فقال الصالح : قل حاجتك في أذني ، فقال : أنا ملك الموت ، فقال : مرحباً بك الحمد للّه على مجيئك فإني كنت كثير الترقّب لوصولك ، ولقد طالت علي غيبتك وكنتُ مشتاقاً الى قدومك ، فقال له ملك الموت : إن كان لك شغل فاقضِه ، فقال : ليس لي شغل أهم عندي من لقاء ربي عز وجل ، فقال : كيف تحب أن أقبض روحك فإني أمرت أن أقبض روحك كيف اخترت وآثرت ، فقال إتركني كيما أتوضأ وأصلي فإذا أنا سجدت فخذ روحي وأنا ساجد ، ففعل ملك الموت ما أمره به ونقله الى رحمة ربه جل وعلا .

* * *

الحكاية الثانية

روي أنه كان ملك كثير المال قد جمع مالاً كثيراً عظيماً من كل نوع خلقه اللّه تعالى من متاع الدنيا ليرفّه نفسه ، ويتفرغ لأكل ما جمعه ، فجمع نعماً طائلة وبنى قصراً عالياً ، مرتفعاً سامياً يصلح للملوك والأمراء ، والأكابر والعظماء ، وركّب عليه بابين محكمين وأقام عليه الغلمان الأجلاد ، والحرسة والأجناد ، والبوابين كما أراد . وأمر بعض الايام أن يصطنع له من

أطيب الطعام وجمع أهل مملكته وحشمه ، وأصحابه وخدمه ليأكلوا عنده ، وينالوا رفده ، وجلس على سرير مملكته ، واتكأ على وسادته ، وقال : يا نفس قد جمعت نعم الدنيا بأسرها فالآن أفرغي بالك وكلي هذه النعم مهنأة بالعمر الطويل ، والحظ الجزيل . فلم يفرغ مما حدث به نفسه حتى أتى رجل من ظاهر القصر عليه ثياب رثة خلقة ، ومخلاته في عنقه معلقة ، على هيئة سائل يسأل الطعام فجاء وطرق الباب طرقة عظيمة هائلة بحيث تزعزع القصر وتزلزل ، وخاف الغلمان ووثبوا الى الباب وصاحوا بالطارق وقالوا : يا ضعيف ما هذا الحرص وسوء الأدب اصبر حتى نأكل ونطعمك مما يفضل ، فقال لهم : قولوا لصاحبكم ليخرج الي فلي إليه شغل مهم ، وأمر ملم . فقالوا تنح أيها الضعيف من أنت حتى تأمر صاحبنا بالخروج إليك ؟ فقال : أنتم عرّفوه ما ذكرت ، فلما عرّفوه قال : هلّا زجرتموه ، وحردتم عليه ونهرتموه . ثم طرق الباب أعظم من الطرقة الأولى فنهضوا من أماكنهم بالعصي والسلاح وقصدوه ليحاربوه فصاح بهم صيحة وقال : إلزموا أماكنكم فأنا ملك الموت ، فارتعدت فرائصهم وبطلت عن الحركة جوارحهم ، ورعبت قلوبهم ، وطاشت عقولهم ، فقال الملك : قولوا له ليأخذ بدلاً مني ، وعوضاً عني . فقال : ما آخذ إلا أنت ولا أتيت إلا لأجلك لأفرق بينك وبين هذه النعم التي خولتها . فقال : لعن اللّه هذا المال الذي غرني وأضرني ، ومنعني عن عبادة ربي وكنت أظن أنه ينفعني ، فاليوم صار حسرتي وبلائي وخرجت صفر اليدين منه وبقي لاعدائي . فأنطق اللّه المال حتى قال : لأي شيء تلعنني ، إلعن نفسك فإن اللّه تعالى خلقني واياك من تراب وجعلني في يدك لتتزود بي الى آخرتك وتتصدّق بي على الفقراء ، وتنزكى بي على الضعفاء ، ولتعمر بي الربط والمساجد والجسور والقناطر لأكون لك عوناً في اليوم الآخر ، وأنت جمعتني وخزنتني ، وفي هواك أنفقتني ، ولم تشكر حقي بل كفرتني فالآن تركتني لاعدائك ، وأنت بحسرتك وضرائك . فأي ذنب لي حتى تلعنني ثم إن ملك الموت قبض روحه قبل أكل الطعام ، فسقط عن سريره صريع الحمام .

* * *

الحكاية الثالثة

قال يزيد الرقاشي : كان في زمن بني إسرائيل جبار من الجبابرة ، وكان في بعض الأيام جالساً على سرير ملكه فرأى رجلاً قد دخل من باب الدار ذا صورة منكرة وهيئة هائلة ، فلشدة خوفه من هجومه ، وهيبة قدومه ، وثب في وجهه وقال : من أنت أيها الرجل ؟ ومن أمرك بالدخول الى داري ؟ فقال : صاحب الدار وانا الذي لا يحجبني حاجب ، ولا أحتاج في دخولي على ملك الى إذن ، ولا أرهب من سياسة سلطان ، ولا يفزعني جبار ، ولا لأحد من قبضتي فرار .

فلما سمع هذا الكلام خر على وجهه ووقعت الرعدة في جسده فقال له . أنت ملك الموت ؟ قال : نعم . قال : أقسم باللّه عليك ألا ما أمهلتني يوماً واحداً لأتوب من ذنبي ، وأطلب العذر من ربي ، وأرد الأموال التي أودعتها خزانتي ، فلا أتحمل مشقة عذابها في الآخرة . فقال : كيف أمهلك ، وأيام عمرك محسوبة ، وأوقاته مثبوتة مكتوبة ؟ فقال : أمهلني ساعة . فقال : إن الساعات في الحساب ، وقد عبرت وأنت غافل ، وقد استوفيت انفاسك ولم يبق لك نفس واحد . فقال : من يكون عندي ، إذا نقلتني الى لحدي ؟ قال : لا يكون عندك سوى عملك . فقال : مالي عمل . قال : لا جرم يكون مقيلك الى النار ، ومصيرك الى غضب الجبار .

ثم قبض روحه فخر من سريره ووقع ، وعلا الضجيج من أهل مملكته وارتفع ، ولو علموا ما يصير إليه من سخط ربه لكان بكاؤهم أكثر وعويلهم أوفر .

* * *

الحكاية الرابعة

يقال أن ملك الموت دخل على سلمان بن داود عليهما السلام فجعل يحد نظره ، ويطيل بصره ، الى رجل من ندمائه ، فلما خرج قال

ذلك الرجـل : يا نبي اللّه من كـان ذلك الـرجل الـذي دخل ؟ فقـال : ملك المـوت . فقال . أخـاف أن يريـد قبض روحي فخلصني من يده . فقـال : كيف أخلصـك ؟ فقال : تـأمر الـريح أن تحملني في هـذه الساعـة إلى بلاد الهند ، لعله يضل عني ولا يجدني .

فـأمر سليمـان الريـح فحملته في الـوقت والحال ، فعـاد ملك المـوت ودخل على سليمان بن داود ، عليهما الصلاة والسلام ، فلما دخل عليه قـال له : لأي سبب كنت تطيل النظر الى ذلك الرجـل ؟ قال : كنت اتعجب منـه لأني أُمرت أن أقبض روحه في أرض الهنـد ، وكان بعيـداً عنها الى أن اتفق بحمل الريح له الى هناك ، فكان ما قدره اللّه تعالى .

* * *

الحكاية الخامسة

يروى أن ذا القرنين مر بقوم لا يملكون شيئاً من أسباب الدنيـا ، وقد حفروا قبور موتاهم على أبواب دورهم ، وهم كل يـوم يتعمّدون تلك القبـور يكنّسونها وينظّفونها وينخرونها ويزورونها ويعبدون اللّه فيهـا ، وما لهم طعـام إلا الحشيش ونبات الأرض . فبعث إليهـم ذو القرنين رجلاً فدعـا ملكهم فلم يجبه ، وقال : ما لي وله . فجاء ذو القرنين ، وقال : كيف حالكم ؟ فإني لا أرى لكم شيئـاً من ذهب ولا فضة ، ولا أرى عنـدكم شيئاً من نعم الـدنيـا ؟ قال : لأن نعم الدنيا لا يشبع منها أحد قط . وقـال : لم حفرتم القبـور على أبوابكم ؟ فقال : لتكون نصب أعيننا فننظر إليها ، ويتجدد لنا دكـر الموت ، ويبرد حب الدنيا في قلوبنا فلا نشتغل بها عن عبادة ربنا ، فقال : ولـم تأكلون الحشيش ؟ فقال : لأنا كرهنا أن نجعل بطوننـا قبوراً للحيـوانات ، ولأن لـذة الطعام لا تتجاوز الحلق . ثم مد يده الى طاقة فاخرج منها قحف رأس آدمي فوضعه بين يديه وقال : يا ذا القرنين ، أتعرف من كان صاحب هـذا ؟ قال : كان صاحب هـذا القحف ملكاً من ملوك الـدنيا ، وكـان يظلم رعيتـه ويجور

عليهم وعلى الضعفاء ويستفرغ زمانه في جمع حطام الدنيا ، فقبض اللّه روحه وجعل النار مقره وهذا رأسه ، ثم مد يده الى الطاقة وأخرج قحفاً آخر فوضعه بين يديه وقال له : أتعرف من كان صاحب هذا ؟ قال : كان هذا ملكاً عادلاً مشفقاً على رعيته محباً لأهل مملكته فقبض اللّه روحه وأسكنه جنته ، ورفع درجته ، ثم انه وضع يده على رأس ذي القرنين وقال : ترى أيّ هذين الرأسين يكون هذا الرأس ؟ فبكى ذو القرنين بكاء شديداً وضمه الى صدره ، وقال له : إن رغبت في صحبتي سلمت إليك وزارتي وأقاسمك مملكتي . فقال : هيهات ما لي رغبة في دلك . قال : ولم ؟ قال : لأن الناس جميعاً أعداؤك بسبب المال والمملكة ، وكلهم أصدقائي بسبب القناعة والصعلكة ، فاللّه تعالى معك فالآن يجب أن تعرف حكايات النفس الأخير وتتيقن معرفتها .

واعلم أن أهل الغفلة المغترين لا يحبون استماع حديث الموت لئلا يبرد حب الدنيا في قلوبهم ، وتتنغص عليهم لذة مأكولهم ومشروبهم . وقد جاء في الخبر أن من أكثر ذكر الموت وظلمة اللحد كان قبره روضة من رياض الجنة ، ومن نسي الموت وغفل عن ذكره كان قبره حفرة من حفر النار ، وكان رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يوماً يصف أجر الشهداء وثواب السعداء الذين قتلوا في معركة حرب الكفار فقالت عائشة رضي اللّه عنها : يا رسول اللّه هل ينال ثواب الشهداء من لم يمت شهيداً ؟ فقال عليه الصلاة والسلام : « من ذكر الموت في كل يوم عشرين مرة كان له مثل أجر الشهداء ودرجتهم » .

وقال عليه الصلاة والسلام : « أكثروا من ذكر الموت فإنه يمحو الذنوب ويبرد حب الدنيا في القلوب». سئل عليه الصلاة والسلام: من أعقل الناس وأحزمهم ؟ فقال : أعقل الناس أكثرهم للموت ذكراً وأحزمهم أحسنهم له استعداداً . له شرف الدنيا وكرامة الآخرة فمن عرف الدنيا كما ذكرناه ، وكرر في قلبه ذكر النفس الأخير سهلت عليه أمور دنياه ، وقوي أصل شجرة الإيمان في قلبه وأخذ في النمو والزيادة ونمت فروع شجرة الإيمان عنده

ولقي اللّه وإيمـانه سـالم . واللّه جلت قدرتـه ، وعلت كلمته ، ينـوّر بصيـرة سلطان العالم ليرى الأشيـاء على ما هي عليـه ويجتهد في آخـرته ، ويحسن الى عبـاد اللّه وبريتـه ؛ فإن في رعيتـه ألف ألف من الخلائق إذا عـدل فيهم كان الكلُّ شفعاءه ومن شفع فيه من هؤلاء الخلائق من المؤمنين كان آمناً يـوم القيامة من العذاب وإن ظلمهم كان الكل خصماءه وعاد أمره عـظيم الخطر ، شديد الغرر ، وإذا صار الشفيع خصماً أشكل الأمر .

الباب الأول

في ذكر العدل والسياسة وذكر الملوك وسيرهم

إعلم وتيقّن أن اللّه سبحانه وتعالى اختار من بني آدم طائفتين وهم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ليبينوا للعباد على عبادته الدليل ، ويوضحوا لهم الى معرفته السبيل ، واختار الملوك لحفظ العباد من اعتداء بعضهم على بعض ، وملكهم أزمة الإبرام والنقض ؛ فربط بهم مصالح خلقه في معايشهم بحكمته ، وأحَلّهم أشرف محل بقدرته ، كما يسمع في الأخبار السلطان ظل اللّه في أرضه . فينبغي أن يُعلمَ أن من أعطاه اللّه درجة الملوك وجعله ظله في الأرض فإنه يجب على الخلق محبته ، ويلزمهم متابعته وطاعته ، ولا يجوز لهم معصيته ومنازعته . قال اللّه تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا أطيعوا اللّه وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم** ﴾[1] فينبغي لكل من آتاه اللّه الدين أن يحب الملوك والسلاطين ، وأن يعطيهم فيما يأمرون ويعلم أن اللّه تعالى يعطي السلطنة والمملكة وأنه يؤتي ملكه من يشاء كما قال في محكم تنزيله : ﴿ **تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير** ﴾[2] .

والسلطان العادل من عدل بين العباد ، وحذر من الجور والفساد ، والسلطان الظالم شؤم لا يبقى ملكه ولا يدوم ، لأن النبي صلى اللّه عليه وسلم يقول: «الملك يبقى مع الكفر ولا يبقى مع الظلم». وفي التواريخ أن

---

(١) سورة النساء ، الآية ٥٩

(٢) سورة آل عمران ، الآية ٢٦ .

المجوس ملكوا أمر العالم أربعة آلاف سنة وكانت المملكة فيهم وإنما دامت المملكة بعدلهم في الرعية ، وحفظهم الأمور بالسوية ، وإنهم ما كانوا يرون الظلم والجور في دينهم وملتهم جائز وعمروا بعدلهم البلاد ، وأنصفوا العباد . وقد جاء في الخبر أن اللّه جلّ ذكره أوحى الى داود عليه السلام أن آنْهِ قومك عن سب ملوك العجم فإنهم عمروا الدنيا وأوطنوها عبادي . فينبغي أن تعلم أن عمارة الدنيا وخرابها من الملوك فإذا كان السلطان عادلاً عمرت الدنيا وأمنت الرعايا كما كانت عليه في عهد أزدشير وأفريدون وبهرام كور وكسرى أنو شروان . وإذا كان السلطان جائراً خربت الدنيا كما كانت في عهد الضحاك وافراسيان وبرزدكنه الخاطىء وأمثال هؤلاء ، وهكذا الى أن استولى أهل الإسلام وغلبوا العجم وأزاحوهم عن بلادهم وعن الملك وقويت دولة دين الإسلام ، ببركة نبينا محمد عليه الصلاة والسلام ، وذلك في عهد خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

فاعلم وتيقّن أن هؤلاء الملوك الذين دكرناهم كانوا أصحاب الدنيا وملوك الأرض وأنهم بلغوا من الدنيا مرادهم ، وصرفوا باللذات أوقاتهم ، ومضوا وبقيت أسماؤهم وسماتهم ، كما عددناه من أفعالهم ، وأوردناه من خصالهم ، لتعلم أن الناس إنما هم الحديث الذي يبقى بعدهم فكل إنسان يُذكر بالذي كان يفعله ، وينسب اليه ما كان يعمله ، إن خيراً فخير وأن شراً فشر .

فيجب على الإنسان أن يزرع بذر الإحسان ، وأن ينفي عن نفسه العيوب الفاحشات ، والخطايا الموبقات ، لا سيما الملوك ليبقى بعدهم حسن الإسم ، وصالح الرسم ، ولئلا يذكر بالقبيح ، وقد حل بالضريح ، كما قال الشاعر :

اهرب من الذنب وتب يا فتى   وإن بدا منك فعد واندم
وانفِ عن نفسك ما شانها   ومن مساوي الدهر خف تسلم
وبعدك يبقى الذكر لا غيره   فكن حديثاً حسناً تغنم

يقال أن ذكر الرجال بعدهم حياتهم الثانية في الدنيا فواجب على

العقلاء قراءة أخبار هؤلاء الملوك والنظر في أحوال هذه الدنيا القليل وفاؤها ، والكثير بلاؤها ، وأن لا يعلقوا قلوبهم بأمانيها فإنها لا يبقى عليها صالح ، ولا يسلم فيها طالح . وليجتهد العاقل أن لا يكثر خصومه فإن أمر الخصوم صعب هائل ، والباري تعالى حاكم عادل ، لابد أن ينصف يوم القيامة بين الخصوم ، ويأخذ من الظالم للمظلوم ، فلا تساوي الدنيا بأسرها ، أن تجعل الناس خصوماً لأجلها كما جاء في الحكاية .

حكاية : كان أبو علي بن إلياس إسفهسلار نيسابور فحضر يوماً عند الشيخ أبي علي الدقاق رحمه اللّه وكان زاهد زمانه ، وعالم أوانه . فقعد على ركبتيه ، بين يديه ، وقال له : عظني . فقال له أبو علي : أيها الأمير ، أسألك مسألة وأريد الجواب عنها بغير نفاق . فقال : أجل أجيبك . فقال : أيها الأمير أيما أحب إليك المال أو العدو ؟ فقال : المال أحب إليّ من العدو . فقال : كيف تترك ما تحبه بعدك وتصطحب العدو الذي لا نحبه معك ؟ فبكى الأمير ودمعت عيناه وقال : نعم الموعظة هذه . وجميع الوصايا والحكم تحت هذا الكلام .

والخالق سبحانه وتعالى أرسل نبينا محمداً صلى اللّه عليه وسلم أخيراً حتى عادت ببركته دار الكفر دار الإيمان ، وأظهره في أسعد وقت وأوان ، وعمر الدنيا بشريعته ، وختم الأنبياء بنبوّته .

وكان الملك في ذلك الزمان كسرى أنو شروان . وهو الذي فاق ملوك إيران ، بعدله ونصفته ، وتدبيره وسياسته ، وذلك جميعه ببركات نبينا محمد صلى اللّه عليه وسلم ، لأنه ولد في زمانه ، ووجد في أوانه . وعاش أنو شروان بعد مولده صلى اللّه عليه وسلم سنتين ، والنبي صلى اللّه عليه وسلم افتخر بأيامه فقال : ولدت في زمن الملك العادل كسرى أنو شروان . وإنما سماه ملكاً عادلاً لعدله ولتعلم أن الصيت الحسن والإسم الجيد خير الأشياء . والملوك الذين كانوا قبله كانت همتهم في عمارة الدنيا والعدل بين الرعية وحفظ الجسم بالسياسة وحسن الإنالة وآثار عمارتهم التي انتهوا الى

اليوم ظاهرة في العالم وكل بلد يعرف بإسم ملكه لأنهم عمروا المواضع ، وبنوا الضياع والمزارع ، واستخرجوا القنوات والمصانع واظهروا ما كان خافياً من مياه العيون وجميع ما ذكرناه كان أنو شروان يعمره بعدله وانصافه ، مع تجنبه الإسراف في عفافه .

حكاية : يقال أن أنو شروان العادل أظهر يوماً من أيام ملكه أنه مريض وأنفذ ثقاته وأمناءه أن يطوفوا أقطار مملكته ، وأكناف ولايته وأن يتطلبوا له لبنة عتيقة من قرية خربة ليتداوى بها . وذكر لأصحابه أن الأطباء وصفوا له ذلك فمضوا وطافوا جميع ولايته وعادوا فقالوا : ما وجدنا مكاناً خراباً ولا لبنة عتيقة . ففرح أنو شروان وشكر إلهه وقال : إنما أردت هذا لأجرب ولايتي ، وأختبر مملكتي ، ولأعلم هل بقي في الولاية موضع خراب لأعمره فالآن لم يبق مكان إلا هو عامر فقد تمت أمور المملكة وانتظمت الأحوال ، ووصلت العمارة الى درجة الكمال .

واعلم : أن أولئك الملوك القدماء كانت همتهم واجتهادهم في عمارة ولاياتهم بعدهم . روي أنه كلما كانت الولاية أعمر ، كانت الرعية أوفى وأشكر . وكانوا يعلمون أن الذي قالته العلماء ، ونطقت به الحكماء ، صحيح لا ريب فيه وهو قولهم : إن الدين بالملك ، والملك بالجند ، والجند بالمال والمال بعمارة البلاد ، وعمارة البلاد بالعدل في العباد . فما كانوا يوافقون أحداً على الجور والظلم ، ولا يرضون لحشمهم بالخرق والغشم ، علماً منهم أن الرعية لا تثبت على الجور وأن الأماكن تخرب إذا استولى عليها الظالمون ، ويتفرق أهل الولايات ويهربون في ولايات غيرها ويقع النقص في الملك ويقل في البلاد الدخل وتخلو الخزائن من الأموال ويتكدر عيش الرعايا لأنهم لا يحبون جائراً ، ولا يزال دعاؤهم عليه متواتراً ، فلا يتمتع بمملكته ، وتسرع إليه دواعي هلكته .

قال مؤلف الكتاب : الظلم نوعان : أحدهما : ظلم السلطان لرعيته وجور القوي على الضعيف والغني على الفقير . والثاني : ظلمك لنفسك وذلك من شؤم معصيتك فلا تظلم ليُرفع عنك الظلم كما جاء في الخبر .

حكاية : يقال أنه كان في بني إسرائيل رجل يصيد السمك ويقوت من صيده أطفاله وزوجته فكان في بعض الأيام يتصيد فوقعت في شبكته سمكة كبيرة ففرح بها وقال : أمضي بهذه السمكة وأبيعها وأخرج ثمنها في نفقة العائلة ، فلقيه بعض العوانية في طريقه وقال له : أتبيع هذه السمكة ؟ فقال في نفسه : إن قلت له نعم أخذها بنصف ثمنها ،فقال له : ما أبيعها . فضربه العواني بخشبة كانت معه على صلبه ضربة موجعة وأخذ السمكة مه غصباً فدعا الصياد عليه وقال : إلّهي خلقتني مسكيناً ضعيفاً ، وخلقته قوياً عنيفاً . اللهم فخذ بحقي منه في الدنيا فإني لا أصبر الى الآخرة . ثم إن الغاصب انطلق بالسمكة الى منزله وسلمها الى زوجته وأمرها أن تشويها فلما شوتها وضعتها بين يديه على المائدة فمد يده ليأكل منها ففتحت السمكة فاها ونكزت أصبعه نكزة سلبت قراره ، وأزالت لشدة نكزتها اصطبارة . فشكا حاله الى الطبيب وذكر ما ناله فقال له الطبيب : ينبغي أن تقطع هذه الأصبع لئلا يسري الألم الى جميع الكف . فقطع أصبعه فانتقل الألم الى الكف وازداد تألمه وارتعدت من خوفه فرائصه ، فقال له الطبيب : ينبغي أن تقطع اليد من المعصم لئلا يسري الألم الى الساعد فقطع يده من المعصم فانتقل الألم الى ساعده فقال له الطبيب : ينبعي ان تقطع الساعد لئلا يسري الألم الى الكتف . فقطع الساعد فانتقل الألم الى الكتف وتوجع فخرج هائماً على وجهه داعياً إلى ربه ، ليكشف ما نزل به فراى شجرة فانكفأ إليها فأخذه النومْ . فرأى في منامه كأن قائلاً يقول له : يا مسكين الى كم تقطع يدك ، امضِ الى خصمك وأرضه . فانتبه وتفكر وتذكر وقال : إنني أخذت السمكة غصباً ، وأوجعت الصياد ضرباً ، وهي النبي نكزتني . فنهض وقصد المدينة وطلب الصياد فوجده فوقع بين يديه والتمس الإقالة وأعطاه شيئاً من ماله وتاب من فعله ، فرضي عنه خصمه ، ففي الحال سكن ألمه ، وبات تلك الليلة على فراشه وتاب واقلع عما كان يصنع ، ونام على توبة خالصة ، ففي اليوم الثاني تداركته رحمة ربه ورد يده كما كانت بقدرته فنزل الوحي على موسى عليه السلام : أن يا موسى وعزتي وجلالي وقدرتي لولا أن الرجل أرضى خصمه لعذبته مهما امتدت به حياته .

حكاية : كان موسى عليه السلام يناجي ربه عز وجل على الطور فقال في ماجاته : إلّهي أرني عدلك وإنصافك . فقال له : أنت رحل عجول حاد جريء لا تقدر أن تصبر . فقال : أقدر على الصبر بتوفيقك . فقال : اقصد العين الفلانية واختف بأزائها وانظر الى قدرتي وعلمي بالغيوب . فمضى موسى وصعد الى تل بأزاء تلك العين وقعد مختفياً فوصل الى العين فارس فنزل عن فرسه وتوضأ من العين وشرب من مائها وحل من وسطه همياناً فيه ألف دينار فوضعه إلى جانبه وصلى ، ثم ركب ونسى الهميان في موضعه وسار فجاء صبي صغير فشرب من العين وأخذ الهميان فجاء بعد الصبي شيخ أعمى فشرب من الماء وتوضأ ووقف في الصلاة فذكر الفارس الهميان فعاد من طريقه الى العين فوجد الشيخ فلزمه وقال : إني نسيت همياناً فيه ألف دينار في هذا الموضع هذه الساعة وما حاء الى هدا المكان سواك . فقال الأعمى : تعلم أني رجل أعمى فكيف أبصرت هميانك ؟ فغضب الفارس من كلامه وجذب السيف فضرب الأعمى فقتله وفتشه عن الهميان فلم يجده فمضى وتركه فعند ذلك قال موسى : إلّهي وسيدي قد نفد صبري وأنت عادل فعرّفني كيف هذه الأحوال ؟ فهبط جبريل عليه السلام وقال : يا موسى الباري تعالى يقول : أنا عالم الأسرار أعلم ما لا تعلم . أما الصبي الصغير الذي أخذ الهميان فاخذ حقه وملكه وذلك أن أبا الصبي كان أجيراً لذلك الفارس فاجتمع عليه بقدر ما في الهميان فالذي أخذه الصبي حقه . وأما ذلك الأعمى فإنه قبل أن يعمى قتل أبا ذلك الفارس فقد اقتص منه ووصل كل ذي حق الى حقه وعدلنا وإنصافنا دقيق . فلما علم موسى ذلك تحير واستغفر . وهذه الحكاية أوردناها ليعلم العقلاء ، ويتصور الألبّاء ، أن اللّه جلّ ذكره لا يخفي عليه شيء وأنه ينتصف من الظالم في الدنيا ولكن نحن غافلون عما جاءنا لا ندري من أين أتانا .

سئل ذو القرنين فقيل له : أي شيء أنت به أكثر سروراً ؟ فقال : شيئان أحدهما العدل والإنصاف . والثاني أن أكافىء من أحسن إلي بأكثر من إحسانه . وقال النبي صلى اللّه عليه وسلم : إن اللّه تعالى يحب

الإحسـان في كل شيء حتى إنـه يحب إنسانـاً إذا ذبح شـاة أن يمهي[1] لهـا المدية ليعجل خلاصها من ألم الذبـح . وقال مـوسى عليه السـلام : إن اللّه تعـالى لم يخلق شيئاً في الأرض أفضـل من الغدل ، والعـدل ميـزان اللّه في أرضه من تعلق به أوصله الجنة . وقال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : إن للمحسنين في الجنة منازل حتى المحسن الى أهله وأتبـاعه . وقـال قتادة في تفسير هذه الآية ﴿**ألا تطغوا في الميزان**﴾[2] قال : أراد به العدل : فقال يـا ابن آدم أعدل كما تحب أن يعدل فيك .

وعن عمـر أن رسول صلى الله عليـه وسلم قال: « **إن اللّه تعـالى** لمـا أهبط آدم الى الأرض أوحى إليـه أربع كلمـات وقـال : يـا آدم علمـك وعلم جميع ذريتك على هذه الكلمات الأربع وهي كلمة لي ، وكلمة لك ، وكلمة بيني وبينك وكلمة بينك وبين الناس . أما الكلمة التي لي فهي أن تعبدني لا تشرك بي شيئاً . وأما التي هي لك فأنا أجـازيك بعملك . وأمـا الكلمة التي هي بيني وبينك ، فمنك الدعاء ومني الإجابة . وأما الكلمة التي بينـك وبين النـاس فهي أن تعـدل فيهم وتنصف بينهم ». وقـال قتـادة : الـظلم ثـلاثـة أضرب : ظلم لا يغفر لصـاحبه ، وظلم لا يـدوم وظلم يغفر لصـاحبه . فأما الذي لا يغفر لصاحبه فهو الشرك باللّه تعالى قـال اللّه تعالى : ﴿ **إن الشـرك لظلم عظيم**﴾[3]. وأما الظلم الذي لا يدوم فهو ظلم العباد بعضهم لبعض . وأما الظلم الذي يغفر لصاحبه فهو ظلم العبد نفسه بارتكاب الذنوب ثم يرجع الى ربه ويتوب فإن اللّه يغفر له برحمته ، ويدخله الجنة بفضله .

نكتة : الدين والملك توأمان مثل أخوين ولدا من بطن واحد فيجب ان يهتم ويجتنب الهوى ، والبدعة والمنكر والشبهة وكل ما يرجع بنقصان الشرع وان علم ان في ولايته من يتهم بدينه ومذهبه أمر بإحضاره وتهديده ، وزجـره ووعيده ، فإن تاب ، وإلا أوقع عليه العقاب ، ونفاه عن ولايته ليطهر الـولاية

---

(١) في القاموس أمهى الحديده أحدها وسقاها الماء ا هـ .

(٢) سورة الرحمن ، الاية . ٨ (٣) سورة لقمان ، الأيه . ١٣ .

من إغـوائه وبـدعته ، وتخلو من أهـل الأهواء ويعـز الإسلام ويستـديم عمارة الثغـور بإنفـاذ العساكـر والحماة إليهـا ويجتهد في إعـزاز الحق وإعـادة رونق السنة النبوية ، والسيرة المرضية لتحمد عند الله طريقته ، وتعـظم في الخلق هيبته ، وتخاف سطوته أعـداؤه ، ويـعلو قدره وبهـاؤه ومنزلتـه ويكبر في عين أضـداده ، ويعظم عنـد أنداده . ويجب أن يعلم أن صـلاح الناس في حسن سيــرة الملك فينبغي للملك أن ينـظر في أمــور الـرعيــة ويقف على قليلهـا وكثيرها ، وعظيمها وحقيرها ولا يشارك رعيته في الأشياء المذمومة ، والأفعال المشؤومة . ويجب عليه احتـرام الصالحين وأن يثيب على الفعـل الجميل ، ويـمنع من الفعل الرديء الوبيـل ويعاقب على ارتكـاب الـقبيح ولا يحـابي من أصر على المعصية ليرغب الناس في الخيـرات ويحذروا من السيئـات . ومتى كان السلطان بلا سياسة وكان لا ينهي المفسد عن فساده ، ويتركه على مراده ، أفسد أموره في سائر بلاده .

وقـالت الحكماء ان طبـاع الرعيـة نتيجة طبـاع الملوك لأن العامـة إنما ينتحلون ويركبون الفساد وتضيق أعينهم اقتداء بـالكبراء فـإنهم يتعلمون منهم ويلزمون طباعهم . ألا ترى أنه قد ذكر في التواريخ أن الوليد بن عبـد الملك من بني أمية كان مصروف الهمة الى العمارة والى الزراعة . وكان سليمان بن عبـد الملك همته في كثـرة الأكل وطيب المـطعم وقضاء الأوطـار والمهمات وبلوغ الشهوات ، وكانت همة عمر بن عبد العزيز في العبادة والزهادة .

قـال محمد بن علي بن الفضل : ما كنت اعلم أن طبـاع الرعيـة تجري على عادة ملوكها حتى رأيت الناس في أيام الوليد قد اشتغلوا بعمارة الكـروم والبساتين واهتموا ببنـاء الدور . وعمـارة القصور ، ورأيتهم في زمن سليمـان ابن عبد الملك قد اهتموا بكثرة الأكل وطيب المطعم حتى كـان الرجـل يسأل صـاحبه أي لـون اصطنعت ومـا الذي أكلت ورأيتهم في أيـام عمـر بن عبـد العزيز قد اشتغلوا بالعبادة وتفرعـوا لتلاوة القـرآن وأعمال الخيـرات ، واعطاء الصدقات ، ليعلم أن في كل زمن يقتدي الرعية بالسلطان ويعملون بأعماله ، ويقتدون بأفعاله ، من القبيح والجميل ، واتباع الشهوات وإدراك الإرادات .

حكاية : ذكروا أن في زمن الملك العادل كسرى انو شروان ابتاع رجل من رجل أرضاً فوجد فيها كنزاً فمضى سريعاً الى البائع وأخبره بذلك فقال: إنما بعتك ولم أعلم ما فيها والكنز الذي وجدته فهو لك ومبارك عليك فقال: لا أريده ولا أطمع في أموال الناس فترافعا بهذه الدعوى الى الملك العادل انو شروان ففرح بذلك وقال هل لكما أولاد فقال أحدهما لي ابن وقال الآخر لي بنت فقال انو شروان أحب أن يكون بينكما قرابة ووصلة وإن تزوجا الولد بالبنت وتنفقا هذا الكنز في جهازهما ليكون لكما ولولديكما ففعلا ما أمر به وتراضيا ما رسم لهما ولو أن الرجلين كانا في زمن سلطان جائر لقال كل واحد منهما الكنز لي ولكنهما لما علما أن ملكهما عادل طلباً الحق ، وآثراً الصدق .

وقالت الحكماء الملك كالسوق فكل أحد يحمل الى السوق ما يعلم أنه فيه نافق وما يعلم انه كاسد لا يحمله الى ذلك السوق . والرجلان اللذان وجدا الكنز وترافعا الى السلطان علما ان الزهد والعدل والصدق يعز عند الملك وان الحق له عنده نفاق فلذلك حملاه إليه ، وعرضاه عليه . وأما الآن في هذا الزمان فكلما يجري على يد أمرائنا وألسنة ولاتنا فهو جزاؤنا واستحقاقنا كما إننا رديئو الأعمال ، قبيحو الأفعال ، ذوو خيانة وقلة أمانة . فأمراؤنا ظلمة جائرون ، وغشمة معتدون . « كما تكونوا يول عليكم » فقد صح بهذا الحديث ان أفعال الخلق عائدة الى أفعال الملك ، أما ترى انه اذا وصف بعض البلاد بالعمارة وان أهله في أمان وراحة ودعة وغبطة فإن ذلك دليل على عدل الملك وعقله وسداده وحسن نيته في رعيته ، ومع أهل ولايته ، وان ليس ذلك من الرعية ، فقد صح ما قالته الحكماء « الناس بملوكهم أشبه منهم بزمانهم » . وقد جاء في الخبر أيضاً « الناس على دين ملوكهم » . وكان من سياسة انو شروان ان بحيث لو ان رجلاً القى في مكان حملاً من ذهب وبقي مهما بقي في موضعه لم يقدر أحد على إزالته من مكانه إلا صاحبه وكان يونان وزير انو شروان متقدماً عنده فقال له يوماً: أيها الملك لاتركن للأشرار فتخرب ولايتك وتفقر رعيتك فيصير حينئذ ملكك الى

الخراب وسلطانك الى الفقر ويقبح اسمك في الدنيا فكتب انو شروان الى عماله: إن أخبرت أنه قد بقي في جميع مملكتي أرض خراب سوى أرض سبخة لا تقبل الزرع صلبت عامل تلك الأرض . وخراب الأرض من شيئين : أحدهما عجز الملك . والثاني جوره . وكان الملوك في ذلك الزمان يتفاخرون بالعمارة ويتحاسدون على اجتماع المملكة .

حكاية : أرسل ملك هندوستان رسولاً الى الملك العادل كسرى انوشروان فقال أنا أولى بالملك منك فانفذ لي خراج ولايتك فأمر انوشروان بإنزال الرسول ثم جمع في اليوم الثاني أرباب دولته وأعيان مملكته واذن للرسول في الدخول اليه فلما مثل بين يديه قال له اسمع جواب رسالتك ثم أمر أنو شروان بإحضار صندوق ففتحه وأخرج منه صندوقاً صغيراً وأخرج منه قبضة من كبر وسلمها الى الرسول وقال هل في بلادكم من هذا قال نعم من هذا عندنا كثير فقال أنو شروان : ارجع وقل لملك الهند يجب عليك ان تعمر ولايتك فانها خراب ثم تطمع بعد ذلك في ولاية عامرة فانك لو طفت جميع ولايتي وطلبت أصلاً واحداً من كبر لم تجده ولو سمعت أن في موضع من ولايتي أصلاً واحداً من كبر لصلبت تلك الولاية على الملك أن يسلك طريق الملوك الذين تقدموه ويعمل على سننهم ويقرأ كتب مواعظهم وقضاياهم فانهم كانوا أطول أعماراً ، وأكثر تجارب واعتباراً ، وإنهم فرقوا بين الجيد والرديء ، وعرفوا الجلّي من الخفي . وكان أنو شروان مع حسن سيرته يقرأ كتب مواعظهم ويطلب استماع حكايتهم ويمضي على مناهجهم وسننهم وملوك هذا الزمان أجدر أن يفعلوا ذلك .

حكاية : سأل أنو شروان العادل يوماً وزيره يونان وقال أريد أن تخبرني بسيرة الملوك المتقدمين فقال له يونان تريد أن أمدحهم بثلاثة أشياء أم بشيئين أم بشيء واحد فقال أنو شروان امدحهم بالثلاثة فقال يونان ما وجدت لهم في شغل من الأشغال ولا عمل من الأعمال قط كذباً . ولا رأيت لهم بشيء جهلاً ولا رأيت لهم في حال من الأحوال غضباً . فقال أنو شروان أمدحهم بالشيئين فقال يونان كانوا دائماً يسارعون الى الخير وعمله . وكانوا دائماً

يحذرون من أعمال الشر . فقال امدحهم بشيء واحد فقال كانت سلطنتهم وجرأتهم على أنفسهم أكثر مما كانت على غيرهم فطلب أنو شروان الكأس وقال ولهذا الكأس سرور بالكرام الذين يأتون بعدنا ويملكون تاجنا وتختنا ويذكروننا كما نذكر نحن من تقدمنا . واشقى الناس من اغتر بملكه وعمر الدنيا وهو لا يدري كيف ينبغي أن يعيش فيها فيعبر دنياه بالتعب ويحصل في آخراه بالندم السرمد ، والعذاب المؤبد . وإنما كان قصد أولئك الملوك واجتهادهم في عمارة الدنيا ليبقى فيها بعدهم طيب الذكر ، مدى الأيام والدهر . كما جاء في الحكاية .

حكاية : كان لأنو شروان كرم يعرف بهزاركام فاجتمع يوماً فيه قيصر ملك الروم ويعفورجين ملك هندوستان في ضيافة أنو شروان فتكلم كل واحد منهم بكلمة حكمة . فقال قيصر الروم ليس شيء في هذه الدنيا أجود من فعل الخير والاسم الصالح والذكر الطيب فإنه يذكر به صاحبه دائماً فيقال بعده لم لا نكون نحن مثله . فقال أبو شروان تعالوا حتى نفعل الخير ونتفكر في الخير فقال قيصر إذا تفكرت في الخير عملت الخير واذا عملت الخير نلت المراد فقال يعمورجين أعاذنا اللّه من فكرة إن نحن أظهرناها استحييناها وان ذكرناها حجلنا وان أخفيناها ندمنا فقال قيصر لأنو شروان أي شيء أحب إليك قال أحب الأشياء إلي أن أقضي حاجة من رآني أهلاً لقضاء حاجته فقال قيصر بل أنا أحب أن لا أذنب حتى لا أخاف ملوكاً كان هذا كلامهم .

انظر كيف كانت سيرتهم مع رعيتهم يا سلطان الإسلام فيجب أن تسمع أقوال هؤلاء الملوك وتنظر أعمالهم وتقرأ حكاياتهم من الكتب وما ينظر فيها من نعت عدلهم وانصافهم وحسن سيرتهم وطيب خبرهم وذكرهم الجاري على ألسنة الخلق إلى يوم القيامة .

كان لأمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه من العدل والسياسة الى حد أقام فيه الحد والعقاب على ولده حتى مات . وكان إذا أنفذ عمالاً إلى أعمال قال لهم اشتروا دوابكم وأسلحتكم من أرزاقكم ولا

تمـــدوا أيـديكم إلى بيت مـال المسلمين ولا تغلقـوا أبـــوابكم دون أربـــاب الحـوائج . قـال عبد الـرحمن ابن عوف دعـاني عمر بن الخـطاب ذات ليلة وقال قد نزل بباب المدينة قـافلة وأخاف عليهم إذا نـاموا أن يسـترق شيء من متاعهم فمضيت معه فلما وصلنا قال لي نم انت ثم جعل يحرس القافلة طول ليلته . وقال عمر رضي اللّه عنه يجب علي أن أسـافر لأقضي حـوائج النـاس في أقطار الأرض لأن بها ضعفاء لا يقدرون على قصـدي في حوائجهم لبعـد المكان فينبغي أن أطوف البلاد لأشاهد أحوال العمال وأسبر سيـرتهم وأقضي حوائج المسلمين فلا يكون في سنّي عمر أبرك من هذه السنة .

حكـاية : قـال زيد بن أسلم رأيت ليلة عمـر بن الخـطاب يـطوف مـع العسس فتبعته وقلت أتأذن لي أن أصاحبك قال نعم فلما خـرجنا من المـدينة رأينا ناراً من بعد فقلنا ربما يكون قـد نزل هنـاك مسافـر فقصدنـا النار فرأينا امرأة أرملة ومعها ثـلاثة أطفـال وهم يبكون وقـد وضعت لهم قدراً على النـار وهي تقول آلهي أنصفني من عمر وخذ لي منه بالحق فإنه شبعان ونحن جياع فلما سمع عمر بن الخطاب ذلك تقدم وسلم عليها وقال أتأذنين أن أدنو اليـك فقالت أن دنوت بخير فبسم اللّه فتقدم وسألها عن حالها وحال أطفالها فقالت وصلت وهؤلاء الأطفـال معي من مكان بعيـد وأنا خـائفة وهم جيـاع وقد بلغ مني ومنهم الجهد والجوع ، وقد منعهم عن الهجوع . فقـال عمر وأي شيء في هذه القدر فقالت تركت فيها ماء لأشاغلهم به ليظنوا أنه طعام فيصبـروا . قال زيد فعاد أمير المؤمنين وقصد دكان الدسم فابتاع منه دسماً ومضى الى دكان الدقيق فابتاع منـه ملء جـراب ثم وضع الجميـع على كاهله ومضى بـه يطلب المرأة والأطفال . فقلت يا أمير المؤمنين ناولنيه لأحمله عنك فقـال ان حملتـه عنى فمن يحمل عني ذنـوبي ومن يحول بيني وبين دعـاء تلك المرأة والأطفال عليّ وجعل يسعى وهو يبكي الى أن وصلنا الى المرأة فقالت المرأة جـزاك اللّه عنا خيـر الجزاء فـأخـذ عمـر جـزأ من الـدقيق وشيئـاً من الـدسم فوضعهما في القدر وجعل يـوقد النـار وكلما أرادت أن تخمـد نفخها والـرماد يسقط على وجهه ومحاسنه الى أن انطبخت القدر فوضع الطبيـخ في القصعة

وقال للمرأة كلي فأكلت المرأة والأطفال فقال عمر أيتها المرأة لا تدعين على عمر فإنه لم يكن عنده منك ولا من أطفالك خبر .

وأول من دُعي بأمير المؤمنين عمر بن الخطاب فإن أبا بكر رضي اللّه عنه دعوه بخليفة رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فلما وصل الأمر الى عمر كانوا يقولون يا خليفة خليفة رسول اللّه فكان يطول ذلك فقال يا أيها المؤمنون سموني أميراً فإني أميركم وان دعوتموني آمير المؤمنين فأنا ذلك عمر بن الخطاب .

حكاية : سئل خازن بيت المال هل انبسط عمر في بيت المال فقال كان في أول الأمر اذا لم يكن له شيء يتقوت به أخذ قليلاً برسم القوت فإذا حصل عنده شيء اعاده الى بيت المال . وخطب يوماً فقال أيها الناس قد كان الوحي ينزل في عهد رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فكنا نعرف به ظاهر الناس وباطنهم وجيدهم ورديئهم والآن قد انقطع الوحي عنا فنحن ننظر من كل أحد الى علانيته واللّه أعلم بسريرته وأنا على الجهد وعمالي أن لا نأخذ شيئاً بغير حق ولا نعطي شيئاً بغير حق . فإن شئت أن تعلم أن عدل السلطان وتقيته سبب لجميل ذكره ، ونيل فخره ، فانظر في أخبار عمر بن عبد العزيز فإنه لم يكن لاحد من بني أمية وبني مروان مثل مدحه ومحمدته ولا يدعي إلا له ولا يثني إلا عليه لأنه كان عادلاً تقياً كريماً حسن السيرة ، تقي السريرة .

حكاية : كان في زمن عمر بن عبد العزيز قحط عظيم فوفد عليه قوم من العرب فاختاروا منهم رجلاً لخطابه فقال ذلك الرجل يا أمير المؤمنين انا اتيناك من ضرورة عظيمة وقد يبست جلودنا على أجسادنا لفقد الطعام وراحتنا في بيت المال وهذا المال لا يخلو من ثلاثة أقسام : أما أن يكون للّه ، أو لعباد اللّه ، أو لك . فإن كان للّه فالله غني عنه ، وإن كان لعباد اللّه فآتهم اياه وان كان لك فتصدق به علينا إن اللّه يجزي المتصدقين . فتغرغرت عينا عمر ابن عبد العزيز بالدموع وقال هو كما ذكرت وأمر بحوائجهم فقضيت من بيت المال فهم الاعرابي بالخروج فقال له عمر أيها الإنسان الحر كما أوصلت

إلي حوائج عباد اللّه وأسمعتني كلامهم فاوصل كلامي وارفع حاجتي الى اللّه تعالى فحول الاعرابي وجهه قبل السماء وقال إلّهي اصنعّ مع عمر ابن عبد العزيز كصنيعه في عبادك فما استتم الاعرابي كلامه حتى ارتفع غيم فأمطر مطراً غزيراً وجاء في المطر بردة كبيرة فوقعت على آجرة فانكسرت فخرج منها كاغد عليه مكتوب هذه براءة من اللّه العزيز لعمر ابن عبد العزيز من النار .

حكاية : يقال أن عمر بن عبد العزيز كان ينظر ليلاً في قصص الرعية وروزنامجاتهم في ضوء السراج فجاء غلام له فحدثه في سبب كان يتعلق ببيته فقال له عمر أطفىء السراج وحدثني فإن هذا الدهن من بيت مال المسلمين فلا يجوز استعماله إلا في اشغال المسلمين . كذا يكون حذر السلطان وتوقيه اذا كان عادلاً كما جاء في الحكاية .

حكاية : كان لعمر بن عبد العزيز غلام وكان خازناً لبيت المال وكأن لعمر بنات فجئنه يوم عرفة وقلن له غداً العيد ونساء الرعية وبناتهم يلمننا ويقلن أنتن بنات أمير المؤمنين ونراكن عريانات لا أقل من ثياب بيضاء تلبسنها وبكين عنده فضاق صدر عمر فدعا غلامه الخازن وقال له أعطني مشاهرتي لشهر واحد فقال الخازن يا أمير المؤمنين تأخذ المشاهرة من بيت المال سلفاً أتظن أن لك عمر شهر فتأخذ مشاهرة شهر فتحير عمر وقال نعم ما قلت أيها الغلام بارك اللّه فيك ثم التفت الى بناته وقال اكظمن شهواتكن فإن الجنة لا يدخلها أحد الا بمشقة .

حكمة : لما كان الأمراء كذلك كان حواشيهم وخدمهم على قاعدتهم والعدل التام هو أن تساوي بين المجهول الذي لا يعرف وبين المحتشم صاحب الجاه المعروف في مقام واحد في الدعاوى وتنظر أيضاً بعين واحدة ولا تفضل أحدهما على الآخر لأجل أن أحدهما فقير والآخر غني فإن الجوهر والخزف في الآخرة بسعر واحد ، ولا يحرق عاقل نفسه بالنار ، لحشمة الأغيار . وإذا كان لرجل ضعيف على سلطان من السلاطين دعوى فينبغي أن يقوم من صدر مملكته ويعمل بحكم اللّه تعالى وينصف ذلك العبد

الضعيف ويرضيه ولا يحيف عليه ولا يستحي من الحق ويعمل بقول تعالى : ﴿إن اللّه يأمر بالعدل والإحسان﴾[1] وحقيقة ذلك إن كان للملك على آخر حق أن يسامحه ويمن به عليه ويأمر عماله الثقات أن يقتدوا بمثاله ويعملوا بسيرته لئلا يسئل عنه يوم القيامة . فقد جاء عن النبي صلى اللّه عليه وسلم أنه قال كل راع يسئل عن غنمه وكل انسان يسئل عن رعيته والحال على هذه الصفة والمآل .

حكاية : يقال أن إسماعيل بن أحمد أمير خراسان نزل بمرو وكان رسمه في كل موضع ينزله أن يأمر المنادي أن ينادي في العسكر إن الجند ما لهم في الرعية شغل فمضى رجل من الخرنبدية ودخل مبطخة قوم فتناول من البطيخ قدراً يسيراً فجاءوا الى باب الملك واستغاثوا فأمر باحضاره فأحضر بين يديه فقال له ألك علينا أجرة فقال نعم فقال أما سمعت المنادي فقال بلى قد سمعته فقال ما حملك على أن آذيت رعيتي قال أخطأت قال لا أقدر لاجل خطئك على دخول النار ثم أمر به فقطعت يده .

حكاية : يحكى عن اسماعيل الساماني في كتاب سير الملوك أنه كان ينزل بحذاء موليان وكان يصل كل وقت الى مدينة كغد ويأمر المنادي أن ينادي في الناس وكان يرفع الحجاب ويزيح البواب ليجيء كل من له ظلامة ويقف على جانب البساط ويخاطبه ويعود مقضي الحاجة . وكان يقضي بين الخصوم مثل الحكام الى أن تفي الدعاوى ثم يقوم من موضعه ويقبض على محاسنه ويوجه وجهه نحو السماء ويقول . إلّهي هذا جهدي وطاقتي قد بذلتهما وأنت عالم الاسرار تعلم نيتي ولا أعلم على أي عبد من عبادك حفت ، ولا لأيهم ظلمت . وما أنصفت أنا واحداً من أصحابي فاغفر لي يا إلّهي من ذلك ما لا أعلم . فلما كان نقي النية ، جميل الطوية ، لا جرم علا أمره ، وارتفع قدره وكان عسكره ألف فارس معتدين بالسلاح مقنعين بالحديد وببركة ذلك العدل والانصاف ظفره اللّه تعالى بعمرو بن ليث حتى قبض عليه وفتح خراسان . ثم أن عمرو ابن ليث انفذ إليه من السجن فقال : لي بخراسان

---

(1) سورة النحل ، الآية ٩٠ .

أموال كثيرة وكنوز موفورة . وأنا أسلم الجميع اليك وأطلقني من السجن فلما سمع اسماعيل ذلك ضحك وقال الى الآن لم يستقم معي عمرو ابن ليث يريد أن يجعل المظالم التي احتقبها . والمآثم التي ارتكبها ، في عنقي ويتخلص من ثقل أوزارها في القيامة قولوا له مالي في مالك حاجة . ثم أنه أخرجه من السجن وانفذه رسولاً الى بغداد فنال من أمير المؤمنين الخلع والتشريف . وجلس اسماعيل في مملكته بخراسان آمناً فارغ البال ، حسن الحال . وبقيت المملكة في عنصر السامانية مائة وثلاثين سنة فلما انتقل الأمر الى أصاغرهم وصبيانهم ظلموا الخلق ، وتعدوا الحق فزال ملكهم . قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم عدل السلطان يوماً واحداً خير من عبادة سبعين سنة . وقال عليه الصلاة والسلام نصفة المظلوم زكاة العقل . وقال عليه الصلاة والسلام من سل سيف الجور سل عليه سيف الغلبة ولازمه الغم كما قال الشاعر :

تقطب منك طلق الوجه يوماً ترى بالعدل عن جور جزاء
فقل للناس ما تهوى استماعاً ولا تقتل أن اخترت البقاء

جاء في الخبر أن داود عليه السلام كان ينظر يوماً فرأى شيئاً ينزل من السماء مثل النخالة فقال: إلّهي ما هذا قال هذه لعنتي أنزلها على بيوت الجائرين .

حكاية : لما قعد أنو شروان في المملكة كتب اليه يونان الوزير فقال إعلم أيها السلطان أن أمور الملك على ثلاثة أشياء : أما أن ينصف رعيته ولا ينتصف منهم وذلك هو الدرجة العليا . أو ينتصف وينصف وهي الدرجة الوسطى أو ينتصف ولا ينصف وهي الدرجة السفلى فانظر أيها الملك الى هذه الثلاثة واختر أيها اردت وأنا أعلم أن مولانا يختار الأولى كما قال الشاعر :

من أنصف الناس ولم ينتصف بفضله منهم فذاك الأمير
ومن يرد انصافهم مثلما أنصف أضحى ماله من نظير
ومن يرد انصافه وهو لا ينصفهم فهو الدنيء الحقير

(نصيحة وموعظة) دخل شبيب بن شبة يوماً على المهدي فقال يا

أمير المؤمنين ان اللّه قد أعطاك الدنيا فاعط رعيتك قسطاً من طيب عيشك فقال المهدي وما الذي ينبغي أن تعطى الرعية فقال العدل فإنه اذا نامت الرعية في أمن منك نمت آمناً في قبرك . وقال احذر يا أمير المؤمنين من يوم لا ليلة بعده ومن ليلة لا يوم بعدها واعدل ما استطعت فإنك تجازى بالعدل عدلاً وبالجور جوراً وزين نفسك بالتقوى فإنك في الحشر لا يعيرك أحد زينته كما قال الشاعر .

فحل نفسك بالتقوى وزينها فلن يعار تقي في الناس من رجل
وليس تبلى يد المعروف فاحظ بها تربح كثيراً ورأس المال لم يزل

حكاية : وصل كتاب من قيصر ملك الروم الى الملك العادل أنوشروان يقول بماذا يكون دوام الملك فكتب اليه في الجواب جواب ذلك أني لا أعمل شيئاً بجهالة واذا أمرت بأمر تممته ولا أتركه لخوف ولا لرجاء ، يريد أنني إذا أمرت بشيء لا أبطله لأجل من يرجوني أو يخافني وأن لا أغير شيئاً أمرت به .

حكمة : سئل ارسطاطاليس هل يجوز أن يدعي أحد ملكاً غير اللّه تعالى فقال من وجدت فيه هذه الخصال وان كانت عارية : العلم والعدل والسخاء والحلم والرقة وما ناسبها لأن الملوك إنما كانوا ملوكاً بالظل الإلّهي وضياء الحس ، وطهارة النفس وتزايد العقل ، والعلم وقدم الدولة وشرف الأصل والدولة التي كانت في محتدهم وأصولهم فبذلك كانوا ملوكاً وسلاطين ومعنى قولهم (فرابرذي) وهو الظل الإلّهي يظهر في ستة عشر شيئاً العقل والعلم وحدة الذكاء وتدارك الأشياء والصور التامة والألمعية والفروسية والشجاعة والإقدام والتأني وحسن الخلق وانصاف الضعيف ومحبة الرعية وإظهار الزعامه والاحتمال والمداراة في مكانها والرأي والتدبير في الأمور والإكثار من قراءة الأخبار وحفظ سير الملوك والفحص عن الأحوال والأعمال التي اعتمدها الملوك وعملوا بها لأن هذه الدنيا بقية دول المتقدمين الذين تملكوها ثم مضوا وانقضوا وصاروا تذكاراً الناس يذكر كل إنسان بفعله . وللآخرة كنز ، وللدنيا كنز فكنز هذه الدنيا حسن الثناء وطيب الذكر ، وكنز

الآخرة العمل الصالح واكتساب الأجر .

حكمة : كان الاسكندر في بعض الأيام قد ركب في مركب مملكته فقال رجل من مقدمي عسكره إن اللّه تعالى أعطاك ملكاً عظيماً فاستكثر من النساء لتكثر أولادك فتذكر بهم بعدك فقال ليس ذكر الرجال بعدهم بكثرة الأولاد لكن بحسن السيرة وعدل النية ورجل غلب رجال الدنيا لا يجوز أن تغلبه النساء .

حكمة : سأل الإسكندر ارسطاطاليس أيما أفضل للملوك الشجاعة أم العدل فقال ارسطاطاليس اذا عدل السلطان لم يحتج الى شجاعة .

حكاية : عزل الإسكندر عاملاً من عماله من عمل كثير خطير ، وولاه أمر عمل خفيف حقير ، فجاء في بعض الأيام ذلك الرجل الى الدركاه فقال له الاسكندر كيف تجد عملك فقال أطال اللّه بقاء الملك الرجال لا تشرف بالأعمال ، بل الأعمال تشرف بالرجال ، وذلك بحسن السيرة والانصاف والعدل وتجنب الاسراف . فاستحسن الاسكندر مقاله ، وأعاد اليه أعماله .

حكمة: قال سقراط العالم مركب من العدل فإذا جاء الجور لا يثبت ولا يستقر .

حكمة أخرى : سئل بزرجمهر فقيل بأي شيء يظهر عز الملك؟ فقال بثلاثة أشياء : حفظ الاطراف مع دفع العدو عن الحوزة ، واكرام العلماء واعزازهم وحب أهل الفضل لأنه كلما جار السلطان خاف أهل الأطراف وإن كانت نعمهم كثيرة فإنها مع الخوف لا تنساغ وإن كانت النعم قليلة انساغت مع الأمن كما جاء في الحكاية .

حكاية : يقال أنه انقطع رجل من قافلة الحج وضل الطريق ووقع في الوجل فجعل يسير الى أن وصل الى خيمة فرأى امرأة عجوزاً ورأى على باب الخيمة كلباً نائماً فسلم الحاج على العجوز وطلب منها طعاماً فقالت العجوز امض الى ذلك الوادي واصطد من الحيات بقدر كفايتك لأشوي لك منها واطعمك فقال الرجل أنا لا أجسر أن أصطاد الحيات فقالت العجوز أنا

أتصيد معك فلما مضت واياه وتبعهما الكلب فأخذا من الحيات بقدر كفايتهما فأتت العجوز وجعلت تشوي له الحيات فلم ير الحاج من الأكل بداً وخاف أن يهلك من الجوع والهزال فأكل ثم أنه عطش وطلب منها الماء ليشرب فقالت له دونك والعين فاشرب فمضى الى العين فوجد ماء مالحاً مراً ولم يجد من شربه بداً فشرب وعاد الى العجوز وقال اعجب منك أيتها العجوز ومن مقامك في هذا الموضع فقالت كيف تكون بلادكم فقال يكون في بلادنا الدور الرحيبة الواسعة ، والفواكه اللذيذة اليانعة ، والمياه العذبة ، والأطعمة الطيبة ، واللحوم السمينة والغنم الكثيرة ، والعيون الغزيرة . فقالت العجوز قد سمعت هذا كله فقل لي هل تكونون تحت يد سلطان يجور عليكم وإذا كان لكم ذنب أخذ أموالكم واستأصل أحوالكم وأخرجكم عن مسرتكم فقال قد يكون ذلك فقالت إذاً يعود ذلك الطعام اللطيف ، والعيش الظريف ، والنعم اللذيذة مع الجور والظلم سماً ناقعاً وتعود أطعمتنا مع الأمن ، درياقاً نافعاً أو ما سمعت أن أجل النعم بعد نعمة الاسلام الصحة والأمن . والأمن إنما يكون من سياسة السلطان . فيجب على السلطان أن يعمل بالسياسة وأن يكون مع السياسة عادلاً لأن السلطان خليفة اللّه ويجب أن تكون هيبته بحيث إذا رأته الرعية خافوا ولو كانوا بعيداً ، وسلطان هذا الزمان ينبغي أن يكون له أوفى سياسة وأتم هيبة لأن أناس هذا الزمان ليسوا كالمتقدمين فان زماننا هذا زمان ذوي الوقاحة والسفهاء ، وأهل القسوة والشحناء . وإذا كان السلطان منهم ضعيفاً أو كان غير ذي سياسة وهيبة فلا شك ان ذلك يكون سبب خراب البلاد وأن الخلل يعود الى الدين والدنيا ، وفي الأمثال جور السلطان مائة عام ولاجور الرعية بعضهم على بعض سنة واحدة وإذا جارت الرعية سلط اللّه عليها سلطاناً جائراً وملكاً قاهراً كما جاء في الحكاية .

حكاية : أعطي الحجاج بن يوسف الثقفي في بعض الأيام قصة مكتوب فيها اتق الله ولا تجر على عباد اللّه كل هذا الجور فرقي الحجاج المنبر وكان فصيحاً فقال أيها الناس ان اللّه سلطني عليكم بأعمالكم فان أنا

مت فلا تخلصون من الجور مع هذه الأعمال السيئة فان اللّه تعالى خلق أمثالي كثيراً وإذا لم أكن أنا كان من هو أكثر شراً مني . قال الشاعر :

وما من يد الا يد اللّه فوقها ولا ظالم الا سيبلى بأظلم

حكمة : سئل بزرجمهر أي الملوك أطهر فقال من أمنه الطاهرون وخاف منه الخطاؤون . وأما السلطان الذي لا سياسة له فليس له في أعين الناس خطر ولا محل بل يكون الخلق عليه ساخطين ثم يذكرونه كل وقت بالقبيح الا ترى أن الإنسان اذا كان من عوام الولاية وتولى عليها وأراد أن يطلب الحساب من الرعية أول ما يكلمهم بالهيبة ويظهر جاهه بالسياسة لعلمه أن الرعية إنما ينظرونه بالعين الأولى .

وفي هذا الباب حكاية عجيبة كان لأبي سفيان بن الحارث ولد وكان يدعى زياد بن أبيه وكان قد ولد في أيام الجاهلية ونفاه وتبرأ منه وقال ما هو لي بولد فلما وصل الأمر الى معاوية قربه وأدناه وولاه ولاية العراق فلما وصل الى العراق وجد أهل العراق قوماً عاثين يفسدون ويسرقون فقصد زيارة المسجد الجامع ورقى المنبر وخطب خطبة ثم قال بعد خطبته واللّه لئن خرج أحد بعد العشاء الآخرة لآخذن راسه عن جسده فليعلم الشاهد الغائب . ثم أمر منادياً بذلك ثلاثة أيام فلما كان في الليلة الرابعة خرج زياد وقد مضى من الليل ثلثه فركب وجعل يطوف محال البلد فرأى اعرابياً ومعه غنم له وهو قائم فسأله زياد ما تصنع ها هنا فقال أتيت مساء ولم أجد موضعاً استقر فيه فنزلت مكاني الى أن أصبح وأبيع غنمي فقال له زياد أنا أعلم إنك صادق وان أطلقتك خفت أن يذيع الخبر عني أن زياداً يقول ما لا يفعل فنفسد سياستي وتنكسر هيبتي والجنة خير لك مما هنا ثم ضرب عنقه وجعل يسير فكل من رآه ضرب عنقه وحز رأسه فلما أصبح من الغد كان قد أخذ رؤوس ألف وخمسمائة رجل ثم جعلها على باب داره مثل البيدر فتهوله الناس وجزعوا لما رأوا من فعله فلما كان الليل خرج وطاف فلقي ثلاثمائة رجل فأخذ رؤوسهم فلم يقدر أحد بعد ذلك أن يخرج من منزله بعد العشاء الآخرة . فلما كان يوم الجمعة رقى المنبر وقال أيها الناس لا يغلق أحد منكم دكانه بالليل ومهما

سرق منكم كان غرامته علي فلم يجسر أحد منهم أن يغلق دكانه تلك الليلة فلما كان من العد أتاه رجل صيرفي وقال قد سرق مني البارحة أربعمائة دينار فقال له زياد تقدر أن تحلف على صحة قولك فقال نعم فحلفه وغرم له أربعمائة دينار وقال له اكتم هذا الأمر ولا تشعر به أحداً فلما كان في الجمعة الثانية اجتمع الناس لصلاة الجمعة وصعد زياد المنبر وقال اعلموا انه قد سرق من دكان الصيرفي أربعمائة ديناراً وأنتم كلكم حاضرون فإن رددتم ذلك فقد عاد الى الرجل ماله وان لم تردوا ذلك فقد أمرت أن لا يمكن أحد منكم أن يخرج من الجامع وأمرت بقتلكم في هذه الساعة ففي الحال لزموا من كان يتهمونه بالسرقة وقدموه بين يديه فرد الذهب الذي كان سرقه فأمر بصلبه في الحال . ثم انه سأل بعد ذلك أي محلة في البصرة ليس فيها أمن فقيل محلة بني الأزد فأمر أن يترك فيها ثوب ديباج له قيمة ثقيلة ليلاً بحيث لا يراه أحد فبقي أياماً ملقى بحاله ولم يكن لأحد جسارة أن يقربه ولا يرفعه من مكانه فقال له أقاربه بعد ذلك ان السياسة خير الأشياء إلا أنك لم ترحم المسلمين أولاً وأهلكت خلقاً كثيراً فقال قد أخذت عليهم الحجة قبل دلك بثلاثة أيام ومن شؤم مخالفتهم لم ينتهوا والذي أصابهم كان من شؤم أعمالهم .

* * *

فصل

ولا ينبغي للسلطان أن يشتغل دائماً بلعب الشطرنج والنرد ، وشرب الخمر وضرب الكرة والصولجان والصيد ، لأن ذلك يمنعه ويشغله عن أمور الرعية فإن لكل عمل وقتاً فإذا فات الوقت عاد الربح خسراناً فإن الملوك القدماء قسموا النهار أربعة أقسام . قسم منها لطاعة اللّه وعبادته ، وقسم للنظر في الرعية وانصاف المظلومين والجلوس بين العلماء والعقلاء ولتدبير الأمور وسياسة الجمهور وتنفيذ المراسم والأوامر وكتابة الكتب وإرسال الرسل ، وقسم للأكل والشرب والتزود من الدنيا وأخذ الحظوظ من الفرح والسرور ، وقسم للصيد ولعب الشطرنج والكرة وما أشبه ذلك .

حكمة : يقال أن بهرام كور قسم نهاره قسمين وجعله شطرين . ففي النصف الأول كان يقضي حوائج الناس ، وفي النصف الثاني كان يطلب الراحة ويقال أنه في جميع عمره ما اشتغل يوماً تاماً بعمل واحد .

وكان أنو شروان العادل يأمر أصحابه الثقات أن يصعدوا إلى أعلى مكان في البلد فينظروا إلى بيوت الناس فكل بيت لا يخرج منه دخان نزلوا وسألوا عن حال أولئك القوم وما خطبهم فإن كانوا في غم أعلموا الملك فكان يحمل غمومهم ويزيل همومهم . ويجب على السلطان أن لا يرضى لغلمانه أن يتناولوا شيئاً من الرعية بغير حق كما جاء في الحكاية .

حكاية : يقال إنه كان قد ولى أنو شروان عاملاً فأنفذ العامل إليه زيادة في الخراج ثلاثة آلاف درهم فأمر شروان باعادة الزيادة الى أصحابها وأمر بصلب العامل . وكل سلطان أخذ من الرعية شيئاً بالجور والغصب وخزنه في خزائنه كان مثله كمثل رجل عمل أساس حائط ولم يصبر حتى يجف ثم

وضع البنيان عليه فلم يبق الأساس ولا الحائط . وينبغي للسلطان أن يأخذ ما يـأخذه من الـرعية وأن يهب مـا يهبه بقـدره لأن لكل واحـد من هـذين حـداً محدوداً كما جاء في الحكاية .

حكاية : يقـال أن المأمـون ولى يومـاً أربعة نفـر أربع ولايـات فأعـطى لواحد منهم منشور خراسان وخلع عليه خلعـة بثلاثـة آلاف دينار . ثم أعـطى الآخر منشوراً بخورستان وخلع عليه خلعة بثلاثة آلاف دينـار وولى الآخر ولايـة مصر وخلع عليه خلعة مثلها ، وولى الآخـر ولاية ارمينيـة وأعطاه خلعـة مثلها ثم استدعى يومئـذ موبـذان وقال يـا دهقان هـل كان لملوك العجم مثـل هذه الخلع فإنه بلغني أن خلعهم مـا كانت تبلغ أكثـر من أربعة آلاف درهم فقـال المـوبذان أطـال الله بقاء أميـر المؤمنين كان لملوك العجم ثـلاثة ليست لكم (أحدها) أنهم كـانوا يـأخذون مـا يأخـذونه من الـرعية بقـدر ويعطونـه بقدر (والثاني) أنهم كانوا يأخذون من موضع يجوز الأخذ منه ويعطون لمن ينبغي أن يعـطى (والثالث) انهم مـا كان يخـافهم إلا أهل الـريب فقـال المـأمـون صدقت ولم يعد عليه جواباً .

ولأجل هذا لمـا كشف المأمـون تربـة كسرى أنـو شروان وفتـح تابـوته وفتشه وجد صورته وهي بمائها ما بـليت ، والثياب بـجدتها مـا تغيرت ولا خلقت ، والخاتم في يده ياقوت أحمر كثير الثمن مـا رأى المأمـون قبله فصاً مثله وكان على فصه مكتوب به مه نه مه به . ومعنى ذلك الأجود أكبـر وليس الأجود أكبر فأمر المأمون أن يغطى بثوب نسج من الذهب وكـان مع المـأمون خادم فأخذ الخاتم من أصبـع كسرى ولم يشعـر المأمـون فلما علم بـه أعاده وأمر باهلاك الخادم وقـال كاد يفضحني بحيث يقـال عني الى يوم القيـامة إن المأمون كان نباشاً وأنه فتح تربة كسرى وأخذ خاتمة من أصبعه .

حكاية : سأل الاسكندر يوماً حليماً من حكمائه وكان قد عزم على سفر فقال أوضحوا لي من الحكمة سبيلاً أحكم فيه أشغالي ، وأتقن فيه أعمالي . فقـال كبير الحكمـاء أيها الملك لا تـدخـل قلبـك حب شيء ولا بغضـه لأن القلب خـاصته كـإسمه وإنمـا سُميَ قلباً لتقلبـه وأعمل الفكـر واتخـذه وزيـراً

واجعل العقل صاحباً ومشيراً ، واجهد ان تكون متيقظاً ولا تشرع في عمل أمر بغير مشورة وتجنب الميل والمحاباة في وقت العدل والانصاف فاذا فعلت ذلك جرت الأشياء على آثارك ، وتصرفت فيها باختيارك ، وينبغي أن يكون الملك وقوراً حليماً ، وان لا يكون طائشاً عجولاً . قالت الحكماء ثلاثة أشياء قبيحة وهي في ثلاثة أقبح: الحدة في الملوك ، والحرص في العلماء ، والبخل في الأغنياء .

حكاية : كتب الوزير يونان الى الملك العادل أنو شروان وصايا ومواعظ فقال ينبغي يا ملك العالم أن يكون معك أربعة أشياء دائمة : العقل ، والعدل ، والصبر ، والحياء . وينبغي يا ملك الزمان أن تنفي عنك الحسد والكبر وضيق الصدر ويريد به البخل والعداوة ، واعلم يا ملك الزمان أن الذين كانوا قبلك من الملوك مضوا والذين يأتون من بعدك لم يصلوا فاجتهد أن يكون جميع ملوك الزمان محبيك ومشتاقيك .

حكاية : يقال ان أنو شروان ركب يوماً من أيام الربيع على سبيل الفرجة فجعل يسير في الرياض المخضرة ، ويشاهد الأشجار المثمرة ، وينظر الى الكروم العامرة فنزل عن فرسه ، وسجد شكراً لربه وخر ساجداً ووضع خده على التراب زماناً طويلاً فلما رفع رأسه قال لأصحابه إن خصب السنين من عدل السلاطين ، وحسن نيتهم الى رعيتهم . فالمنة لله تعالى الذي أظهر حسن نيتنا في سائر الأشياء وإنما قال ذلك لأنه جربه في الأوقات .

حكاية : يقال ان أنو شروان الملك العادل خرج يوماً الى الصيد فانفرد من عسكره خلف الصيد فرأى ضيعة بالقرب منه وكان قد عطش فقصد الضيعة وأتى باب دار قوم وطلب ماء ليشرب فخرجت صبية فابصرته ثم عادت الى البيت فدقت قصبة واحدة من قصب السكر ومزجت ما عصرته منها بالماء ووضعته في القدح فرأى فيه تراباً وقذى فشرب منه قليلاً قليلاً حتى انتهى لآخره وقال للصبية (سادناس) أي نعم الماء لولا قذى كدره فقالت (ياشرهيك) أنا عمداً ألقيت فيه القذى فقال ولم فعلت ذاك فقالت

رأيتك شديد العطش ولو لم يكن فيه القـذى لشربتـه نوبـة واحدة وقـد يضرك شربه فتعجب أنو شروان من كلامها وعلم أنها قالته عن ذكاء وفطنة . ثم قـال لهـا من كم عصرت ذلـك الماء فقـالت من قصبة واحـدة فتعجب أنو شـروان وأضمر في نفسه أنه إذا عاد يأمر بـزيادة الخـراج على تلك الناحيـة . ثم عاد الى تلك النـاحية بعـد وقت آخر واجتـاز على ذلك البـاب منفرداً وطلب مـاء فخرجت إليه تلك الصبية بعينها فعرفته ثم عادت لتخرج المـاء فأبطأت عليه فاستعجلها أنو شروان وقـال لأي شيء أبطأت قـالت لأنه لم يخـرج من قصبة واحـدة قدر حـاجتك وقـد دققت ثلاث قصبـات ولم يخرج منهـا قدر مـا كان يخرج من قصبة واحدة فقال أنو شروان وما سبب ذلك العجـز ؟ فقالت سببـه تغيـر نيـة السلطان فقـد قيـل أنـه إذا تغيـرت نيـة السلطان على قـوم طـارت بركاتهم ، وقلت خيراتهم فضحك أنـو شروان وعجب من قـول الصبية وأزال من نفسه ما كان أضمره لهم وتزوج الصبية لحسن ذكائها وفصاحة كلامها .

حكمة : يقال أن الصادقين من الناس ثلاثة الأنبيـاء والملوك والمجانين وقيـل السكر جنـون وإن المجنون يخـاف من السكران لأن المجنـون سكـره باطن والسكران جنونه ظاهر والويل لمن يبقى في سكـر الغفلة دائماً كمـا قال الشاعر :

من أسكــرتــه الـخمـر في عقـله	ليس عليـه إن صحـا من خـجـل
ومـن يـكـن بـالـمـلك ذا سـكـرة	يصـح إذا مـا الملك عنـه انتقـل

والقليل جداً من كان من سكر سلطنته صاحياً وكان المقدم على أعماله ثقة نصوحاً معيناً . وعـلامة سكـر السلطان ان يسلم وزارته الى محتـاج معوز ثم يستديمه ويتمسـك به الى أن تـزول حاجتـه ، وتنقضي فاقتـه ، ثم يعزلـه وينصب غيره فيكون مثله مثل من يربي طفلاً صغيراً الى أن يصيـر بالغـاً كبيراً يصلح للأشغال ، وإمضاء الأعمال ، ثم يقتله ويستأصله .

قيل أربعة أشياء على الملوك من جملة الفرائض وهي إبعاد الأدنياء عن مملكتهم ، وعمارة المملكة بتقريب العقلاء ، وحفظ المشايخ وأُولي الحكمة

والتجربة والزيادة في أمر الملك بالإقلال من الأعمال المذمومة .

إشارة لطيفة : لما تولى الأمر عمر بن عبد العزيز كتب الى الحسن البصري أن أعني بأصحابك فكتب اليه الحسن البصري أما طالب الدنيا فلا ينصح لك ، وأما طالب الآخرة فلا يرغب فيك ، ولا يجوز للسلطان أن يسلم وزارته ولا عملاً من أعماله الى من ليس بأهل فإن سلم الأعمال الى ذلك الرجل فقد أفسد ملكه وظهر له الخلل الوافر من كل وجه ومن كل جانب كما قال الشاعر :

البيت إذا ما حان منه خرابه ظهر التخلخل من أساس الحائط
وإذا تولى الملك غير رجاله ولوا الأمور لكل فدم ساقط

وينبغي لمن خدم الملوك أن يكون كما قال الشاعر :

إذا خدمت الملوك فالبس من التوقي أعز ملبس
وادخل إذا ما دخلت أعمى واخرج اذا ما خرجت أخرس

وأما من تبسط مع السلطان فقد ظلم نفسه ولو كان ولد السلطان فليس للانبساط معهم في خدمتهم وجه كقول الشاعر :

إذا كنت للسلطان نجلاً فداره وخف منه إن أحببت رأسك تسلم

ومثل من تبسط مع السلطان كمثل الحواء الذي يكون دهره مع الحيات يأكل معها وينام معها ، أو كرجل في البحر بين التماسيح التي تبلع الناس فلا يزال مخاطراً .

حكمة : قيل ويل لمن ابتلى بصحبة السلاطين فإنهم ليس لهم صديق ولا قرابة ولا خادم ولا ولد ولا احترام لاحد الا من كانوا محتاجين إليه لعلمه أو لشجاعته فإذا أخذوا حاجتهم منه لم يبق لهم عنده مودة ولم يبق له عندهم وفاء ولا حياء وأكثر أشغالهم رياء يستصغرون كبار ذنوبهم ويستعظمون صغار ذنوب غيرهم . قال سفيان لا تصحب السلطان وإياك وخدمته لأنك إن كنت له مطيعاً أتعبك ، وإن خالفته قتلك وأعطبك .

حكاية : يقال أن يزدجرد بن شهريار دخل على والده في وقت لم يكن

لأحد اذن في الدخول فقال شهريار لبهرام أمض وأضرب الحاجب الفلاني ثلاثين خشبة واطرده عن الدركاه وأقم عوضه فلانا الحر . وكان عمر يزدجرد يومئذ ثلاث عشرة سنة فعزل ذلك الحاجب الأول عن الباب فعاد يزدجرد في بعض الأيام وأراد أن يدخل على والده شهريار فجعل الحاجب يده في صدره ورده على عقبه وقال إن عدت ورأيتك ههنا ضربتك ستين خشبة ثلاثين لأجل الحاجب المعزول وثلاثين لئلا تعود تدخل على الملك في غير وقت الإذن وإنْ كنت ولده لئلا تجلب إلي الضرب والهوان والطرد .

وأصلح الأشياء للملك أن لا يباشر الأسباب بنفسه ويحفظ ناموسه لأن كثيراً من الأرواح يتعلق بروحه وصلاح الرعية في حياته . وكذا ينبغي أن لا يجور على نفسه ولا يجور على الناس . ولا ينبغي للملك أن يجازف في الأشغال ولا يتساهل فيها . ويجب عليه أن ينيم على فراشه كل ليلة غيره ويتحول بنفسه عن ذلك الموضع حتى إذا قصده عدوٌ لاتلاف نفسه وجد في مكانه غيره فلا تصل يد عدوه اليه كما جاء في الحكاية .

حكاية : يقال أنه انهزم خسرو بن أبرويز من بهرام جور وقال هربت وإن كان هربي عيباً لاخلص بهربي أرواح جماعة من أصحابي لأني إن هلكت هلك بسببي ألوف من الخلائق . والمقصود من المقال أن زماننا هذا غير موافق والناس فيه بين قبيح الفعل وعاقل والملوك مشغولون بالدنيا وحب المال ولا يجوز الاهمال والتغافل بين أناس السوء . وفي أمثال العرب (العبد يقرع بالعصا ، والحر تكفيه الاشارة) وهذا المثل يضرب في من له أصل ومن لا أصل له وقد كان للناس وقت وزمان يؤمن فيه رجل واحد جميع أهل الدنيا ويسخرهم بدرة كان يحملها على عاتقه وهو عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه والفضل في ذلك الزمان للوقت والرعية مشغولون ولو عوملوا بتلك المعاملة لم يحتملوا ولبدا فيهم الفساد . لكن ينبغي للسلطان في هذا الوقت أن يكون له أتم سياسة وهيبة ليشتغل كل انسان بشغله ويأمن الناس بعضهم من بعض .

ونحن الآن نورد خبراً يستفيد به القارىء والسامع : سئل أمير المؤمنين

علي بن أبي طالب كرم اللّه وجهه لاي شيء لا تنفع الموعظة هؤلاء الخلق فقال الخبر المعروف أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم لما أوصى عند وفاته أشار بأصابعه الثلاث وقال لا تسألوني عن حال أولئك فقال قوم من الصحابة أشار الى ثلاثة أشهر وقال قوم الى ثلاث سنين وقال قوم الى ثلاثين سنة وقال قوم ثلاثمائة سنة يعني إذا مضت ثلاثمائة سنة فلا تسألوني عن حال أولئك الرجال فإذا قال النبي صلى اللّه عليه وسلم لا تسألوني عن حال أولئك فكيف ينفع الوعظ فيهم . وسئل عن هذا السؤال فقال كان الناس في ذلك الوقت نياماً وكان العلماء أيقاظاً واليوم العلماء نيام والخلق موتى فأي نفع لكلام النائم مع الميت .

أما زماننا هذا فهو الزمان الذي هلك فيه الخلائق جميعهم وقد خبثت أعمال الناس ونياتهم وإذا لم يكن فيه للسلطان سياسة على الخلائق ولا هيبة لم يثبتوا على الطاعة والصلاح . وقد قال النبي صلى اللّه عليه وسلم العدل من الدين وفيه صلاح السلطان وقوة الخاص والعام وفيه يكون خير الرعية وأمنهم وعافيتهم وكل الأعمال توزن بميزان العدل . قال اللّه تعالى : ﴿والسماء رفعها ووضع الميزان﴾[1] يعني به العدل . وقال عز وجل في موضع آخر : ﴿الذي أنزل الكتاب بالحق والميزان﴾[2] واحق الناس بالجاه والمملكة من كان في قلبه مكان للعدل ، وبيته مقر ذوي الدين والفضل ، ورأيه من أرباب الدين والعقل ، وصحبته مع العقلاء ، ومشورته مع ذوي الآراء . كما قال الشاعر :

يده خزانة جوده والقلب خازن قصده
قد رتبت أبوابه أبداً لطالب عدله

قال الحسن البصري كل ملك عظم أمر الدين كان عند رعيته مهيباً عظيم القدر والأمر ومن عرف اللّه تعالى تعرف الخلق به واختاروا أن يكونوا معارفه كما قال الشاعر :

من عرف اللّه تعالى اسمه آنس كل الخلق عرفانه

---

(١) سورة الرحمن ، الآية ٧ (٢) سورة الشورى ، الآية ١٧

طوبى لمن أول ما حازه معرفة الخالق سبحانه

قال بزر جمهر ينبغي للملك أن لا يكون في مملكته أقل من البستاني في حفظ بستانه إذا زرع الريحان ونبت بينه الحشيش استعجل في قلع الحشيش كيلاً يضبط أماكن الريحان .

قال أفلاطون علامة السلطان المظفر على العدو ان يكون قوياً في نفسه لازماً لصمته معكراً في رأيه وتدبيره بقلبه وأن يكون عاقلاً في ملكه شريفاً في نفسه حلواً في قلوب الرعية رفيقاً في سائر أعماله ، مجرباً لعهد من تقدمه خبيراً بأعمال من هو أقدم منه صلباً في دينه وعزمه . وكل ملك تجمعت فيه هذه الحلال ، وحصلت له هذه الخصال ، كان في عين عدوه مهيباً ، ولا يجد العائب له معيباً ، إذا كان الملك يرى أن حوله وقوته بالله جلت قدرته وإن كان عدوه قوياً فإنه يظفر به وينتصر عليه ، مثاله قول الله عز وجل ﴿ **كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين** ﴾[1] .

نكتة . قال سقراط الحكيم علامة السلطان الذي يدوم ملكه أن يكون الدين والعقل منه حيين في قلبه ليكون في قلوب الرعية محبوباً ، وأن يكون العقل قريباً ، وأن يكون طالباً للعلم ليعلم من العلماء وأن يكون فضله غزيراً ، وبيته كبيراً ، ليعظم عند الفضلاء ، ويربي الأدباء ليتفرع عنه الأدباء ، وان يبعد عن مملكته متطلبي العيوب لتبعد عنه العيوب . وكل ملك لم يكن له مثل هذه الخصال لا يفرح بمملكته ، وتسرع اليه دواعي هلكته ، ويتلف أقرباؤه على يده وجلساؤه لأن القيل يظهر من عدم العقل كما قال الشاعر :

يقول الحكيم المقال الأسد دع المزح إذ لست فيه أسد

تحفظ بنفسك مع مفلتيـ ـك فعينك للملك تجني الحرد

وخف أن تنازعه ملكه وفي حالة السخط عنه ابتعد

فتقتل عن سخطه لا لجرم ضياعاً وليس عليه قود

سمعت عن الخمر أن المليك يسكر منها قبيل الأمد

---

(١) سورة البقرة ، الآية : ٢٤٩ .

اشارة وحكمة : سأل معاوية الأحنف بن قيس فقال يا أبا يحيى كيف الزمان فقال الزمان أنت إن صلحت صلح الزمان وإن فسدت فسد الزمان . وقال الأحنف بن قيس أن الدنيا عمرت بالعدل فكذلك تخرب بالجور لأن العدل يصفو نوره ، وتلوح تباشيره ، من مسيرة ألف فرسخ والجور يتراكم ظلامه ، ويسود قتامه من مسيرة ألف فرسخ . وقال الفضيل بن عياض لو كان دعائي مستجاباً لم أدع به لغير السلطان العادل لأن السلطان العادل صلاح العباد ، وزينة البلاد ، وقد جاء في الخبر ، عن سيد البشر صلوات الله وسلامه (عليه المقسطون على منابر اللؤلؤ يوم القيامة) .

حكاية : كان الاسكندر يوماً على تخت مملكته وقد رفع الحجاب فقدم بين يديه لص فأمر فقال أيها الملك سرقت ولم يكن لي شهوة السرقة ولم يطلبها قلبي فقال له الاسكندر لا جرم تصلب ولا يطلب قلبك الصلب ولا يريده ، فواجب على السلطان أن يعدل وينظر غاية النظر فيما يأمر به من السياسة لينفذ ذلك في أصحابه مثل وزيره،وحاجبه ونائبه وعامله لأن كثيراً من سياسة السلطان وعدله ونظره وحسن تأمله يغطى عليه بالبراطيل ويغرب وقته وذلك من تغافل الملك وتهاونه فينبغي أن يجتهد غاية الاجتهاد في تدارك ذلك كما جاء في الحكاية .

حكاية : كان للملك كستاشب وزير اسمه راشت روش وبهذا الاسم كان يظن كستاشب أنه تقي صالح وما كان يسمع فيه كلام أحد يقدح فيه ولم يكن يخبر حاله فقال راشت روش لخليفة الملك أن الرعية قد بطرت الآن من كثرة عدلنا فيهم وقلة تأديبنا لهم وقد قيل إذا عدل السلطان جارت الرعية والآن قد قامت منهم رائحة الفساد ويجب علينا أن نؤدبهم ونزجرهم ونبعد المعتدين ونقرب الصالحين ثم انه كان كل من ألزمه الخليفة أن يؤدبه ارتشى منه راشت روش وأطلقه الى أن ضعفت الرعية وضاقت بها الأحوال ، وخلت الخزائن من الأموال ، فظهر لكستاشب عدو فاعتبر خزائنه فلم يجد فيها شيئاً يصلح به أمور عسكره فركب يوماً في شغل عليه وسار في البرية فرأى من بعد قطيع غنم مقصده فرأى خيمة مضروبة والأغنام نيام ورأى كلباً مصلوباً فلما

قرب من الخيمة خرج إليه شاب فسلم عليه وسأله النزول فاكرمه وقدم بين يديه ما حضر كما وجب فقال كستاشب أخبرنا عن حال هذا الكلب وصلبه قال يا مولانا كان هذا الكلب أميناً لي على أغنامي فصادف ذئبة فكان ينام معها ويقوم معها والذئبة كل يوم تأتي وتأخذ من الغنم رأساً بعد رأس فجاء في بعض الأيام صاحب الموضع وطلب مني حق المرعى فقعدت اتفكر واحسب حساب الغنم وهي تنقص في الحساب ورأيت ذئباً أخذ شاة والكلب ساكت مكانه فعلمت أنه كان سبب تلف الغنم وانه كان يحون أمانته فلزمته وصلبته فاعتبر كستاشب وجعل يتفكر في نفسه وقال رعيتنا أغنامنا فيجب أن نسأل نحن أيضاً عنها لنصل الى حقيقة أمرها فرجع الى داره فجعل ينظر في الروزمجات فإذا هي جميعها شفاعات راشت روش فضرب مثلاً وقال من اغتر بالاسم من ذوي الفساد ، بقي بغير زاد ، ومن خان في الزاد بقي بلا روح ثم أمر بصلب الوزير وهذه الحكاية مكتوبة في كتاب بادركارنامه وفيها يقول الشاعر :

ومـا أنا بـالمغتر بـاسمك إنمـا	تسميت كي تحتال في طلب الرزق
ومن يجعل الأسماء فخاً لرزقه	يعد غير ذي روح على الجذع مستلقي

حكاية : يقال أنه كان لعمرو بن ليث نسيب يعرف بأبي جعفر بن زيدويه وكان عمرو به حفياً ومن جملة محبته له أنه كان يصله من هراة في كل سنة مائة جمل حمر الوبر على كل جمل حمل من الحوائج فانفذ عمرو من كل حاجة حملاً الى دار أبي جعفر بن ريدويه وقال ليوسع عليه في مطبخه فقيل لعمرو بن ليث أن أبا جعفر قد بطح غلاماً له وقد ضربه عشرين خشبة فأمر أن يحضر ثم أمر بكل سيف في خزائنه فقال يا أبا جعفر اختر من هذه السيوف أجودها واعزله ناحية فجعل أبو جعفر يتخير وينتقي الى أن أفرد منها مائة سيف فقال اختر الآن منها سيفين فاختار أبو جعفر منها سيفين أجودها فقال عمرو ارسم الآن أن يجعلا في قراب واحد فقال أبو جعفر أيها الأمير كيف يمكن أن يكون سيفان في قراب واحد فقال عمرو بن ليث فكيف يمكن أن يكون أميران في بلد واحد فعلم أبو جعفر أنه اخطأ فقبل الأرض والتمس

العفو والاقالة فقال عمرو بن ليث لولا حق القرابة ما جئت بيتك فخل عن هذا الأمر لنا فقد عفونا هذه النوبة عنك .

حكمة : قال ازدشير إذا كان الملك عاجزاً عن اصلاح خواصه ومنعهم عن الظلم فكيف يقدر على رد العوام الى الصلاح قال اللّه تعالى : ﴿ **وأنذر عشيرتك الأقربين**﴾[1]فالعرب تقول أنه ليس شيء أضيع للملك وأفسد للرعية من تعذر الإذن في الدخول وتكاتر الحجاب، وصعوبة الحجاب. وإذا كان الملك سهل الحجاب لم يكن للعمال أن يجوروا على الرعايا وخافت الرعية من جور بعضهم على بعض ومن سهولة الحجاب يكون للملك على سائر العمال اطلاع . ولا يجوز للسلطان أن يكون غافلاً لتكون الهيبة من ناموس المملكة باقية ويستريح من الهموم الحادثة عن الغفلة .

حكاية : يقال أن ازدشير كان متيقظاً ذا فطنة بالأمور بحيث إذا جاءه ندماؤه من الغد حدث كل واحد مّنهم بما صنعه وكان يقول لأحدهم انك البارحة فعلت الشيء الفلاني ونمت مع زوجتك ومع جارينك الفلانية ومهما كان يجري لندمائه يحدثهم به من الغد بحيث أنهم كانوا يقولون ويظنون أن ملكاً من السماء يأتي ويعرفه بأفعالهم وكذلك كان السلطان محمود بن سبكتكين رحمه اللّه .

حكمة : قال أرسطاطاليس خير الملوك من كان في حدة نظره على مثال العقاب وكان الذين حوله كعقبان لا كالجف يعني إذا كان السلطان جيد النظر ذا يقظة بالأمور ذا فكرة في العاقبة وكان المقربون منه وخواص دولته بهذه الصفة انتظمت أحوال مملكته واستقامت أمور أهل ولايته .

حكمة : قال الاسكندر خير الملوك من بدل السنة السيئة بالسنة الحسنة وشر الملوك من بدل السنة الحسنة بالسنه السيئة .

حكمة : قال أبرويز ثلاثة لا يجوز للملك التجاوز عنهم ولا يتصفح عن ذنوبهم . من قدح في ملكه ، أو أفسد حرمه ، أو أفشى سره .

---

(١) سورة الشعراء ، الآية ٢١٤

قال سفيان الثوري خير الملوك من جالس أهل العلم ويقال أن جميع الأشياء تتجمل بالناس والناس يتجملون بالعلم وتعلو أقدارهم بالعقل وليس شيء خيراً من العقل والعلم فإن العلم بقاء العز ودوامه ، والعقل بقاء السرور ونظامه . ومن اجتمع العلم والعقل فيه فقد اجتمعت فيه اثنتا عشرة خصلة : العفة ، والأدب ، والتقى ، والأمانة ، والصحة ، والحياء ، والرحمة ، وحسن الخلق ، والوفاء ، والصبر ، والحلم ، والمداراة في مكانها وهذه من خواص آداب الملك . وينبغي أن يكون مع العقل العلم كما أن مع النعمة الشكر ، ومع الصباحة الحلاوة ، ومع الاجتهاد الدولة فإذا جاءت الدولة حصل المراد حميعه .

حكاية : قال عبد الله بن طاهر أن يعقوب بن ليث علا أمره وارتفع قدره ، وظهر اسمه وذكره ، وملك كرمان وفارس وخورستان وقصر الواق وكان الخليفة في ذلك الزمان المعتمد فكتب إليه المعتمد انك كنت رجلاً صفاراً فمن أين تعلمت تدبير الملك فكتب إليه يعقوب جواباً وقال إن المولى الذي آتاني الدولة آتاني التدبير ، وفي عهد ازدشير مكتوب كل عزيز لا يضع قدمه على بساط العلم كانت عاقبته ذلاً وكل عبد ليس معه خوف من الله تعالى وإن كان تاماً فإن مصيره الى الندم .

حكمة : قال عبد الله بن طاهر يوماً لأبيه كم تبقى هذه الدولة فينا وتبقى في بيتنا قال ما دام بساط العدل والانصاف مبسوطاً في هذا الإيوان .

حكمة : كان المأمون قد جلس في بعض الأيام لفصل الدعاوى والأحكام ورفعت إليه قصة فسلم القصة الى وزيره الفضل بن سهل وقال اقضر تمته وارفع هذه القصة في هذه الساعة فإن الفلك في سرعة دورانه قبل أن يثبت على حاله .

قال مؤلف الكتاب يجب على الملوك العقلاء ، والافاضل الألباء أن ينظروا في هذه الأخبار ليأخذوا نصيباً من أيام دولهم وينصفوا المظلومين ويقضوا حوائج السائلين ، ويتيقنوا أن هذا الفلك لا يثبت على دور واحد لأنه

لا اعتماد على الدولة وإن القضاء سماوي لا يرد بالعساكر ، وكثرة الأموال والذخائر ، وإذا انحلت الدولة وتلاشت الأموال ، وتفانت الرجال ، فلا ينفع الندم إذا زلت القدم كما جاء في الحكاية .

حكاية : أن مروان آخر خلفاء بني أمية عرض العسكر فكان ثلاثمائة ألف رجل بالعدد الكاملة فقال وزيره ان هذا لمن أعظم الجيوش فقال له مروان اسكت فإنه إذا انقضت المدة ، لم تنفع العدة ، وإذا نزل القضاء السماوي وإن كان العسكر عظيماً كثيراً بان قليلاً حقيراً ، ولو ملكنا الدنيا بأسرها فلا بد أن تنزع منا ولمن وفت الدنيا حتى تفي لنا .

حكمة : قال أبو الحسين الاهوازي في كتاب الفرائد والقلائد الدنيا لا تصفو لشارب ، ولا تبقى لصاحب فخذ زاداً من يومك لغدك فلا يبقى يوم عليك ولا غد . ويقال أنه كان على قبر يعقوب بن ليث مكتوباً هذه الأبيات عملها قبل موته وأمر أن تكتب على قبره وهي هذه :

سلام على أهل القبور الدوارس	كأنهم لم يجلسوا في المجالس
ولم يشربوا من بارد الماء شربة	ولم يأكلوا ما بين رطب ويابس
فقد جاءني الموت المهول بسكرة	فلم تغن عني ألف آلاف فارس
فيا زائر القبر اتعظ واعتبر بنا	ولا تك في الدنيا هديت بآنس
خراسان نحويها وأطراف فارس	وما كنت عن ملك العراق بآيس
سلام على الدنيا وطيب نعيمها	كأن لم يكن يعقوب فيها بجالس

سؤال وجواب : سئل ملك كان قد زال عنه الملك فقيل لاي سبب انتقلت الدولة عنك وسلمت الى غيرك وسلبت منك؟ فقال لاغتراري بالدولة والقوة ورضاي برأيي وعلمي وغفلتي عن المشورة وتوليتي لأصاغر العمال ، على اكابر الأعمال ، وتضييعي الحيلة في وقتها وقلة تفكري في الحيلة وإعمالها وقت الحاجة اليها والتباطؤ والوقفة في مكان العجلة والفرصة والاشتغال عن قضاء الحوائج . وقيل أي الاشرار أكثر شراً فقال الرسل الخونة الذين يخونون في الرسالة لاجل اطماعهم فكل خراب المملكة منهم كما قال

ازدشير في حقهم كم سفكوا من الدماء وكم هزموا من الجيوش ، وكم هتكوا من أستار ذوي الحرمات الاحرار ، وكم من يمين كذبوها بخيانتهم ، وكم من عهود نقضوها بقلة أمانهم وكم اجتاحوا من الأموال ، وكان ملوك العجم يتحرزون ويتحفظون وما كانوا ينفذون رسولاً إلا بعد أن يجربوه ويمتحنوه .

حكمة : يقال أن ملوك العجم كانوا إذا أرسلوا رسولاً الى الملوك أرسلوا معه جاسوساً ليكتب جميع ما قاله وما سمعه فاذا عاد الرسول قابلوا كلامه بالنسخة التي كتبها الجاسوس فإن صح مقاله علموا أنه صادق فكانوا يرسلونه بعد دلك الى الاعداء .

حكاية : أرسل الاسكندر رسولاً الى الملك دارا بن دارا فلما عاد الرسول وأعاد الجواب شك الاسكندر في كلمة من كلامه فلزمها عليه فقال الرسول يا مولاي أنا سمعت هذه الكلمة منه بأذني هاتين فأمر الاسكندر أن يكتب ذلك اللفظ بعينه وأنفذه على يد رسول آخر الى دارا بن دارا فلما وصل وعرض المكتوب عليه قرأه وطلب سكيناً وقطع تلك الكلمة من الكتاب وأعاده إلى الاسكندر وكتب إليه أن إسّ الملك على حسن نية الملك وصحة طبعه وأساس صحة السلطان على صحة لفظ السفراء وصدق مقالة الرسل الأمناء لأن الرسول يقول بلسانه عن لسان الملك ويسمع ما يسمعه من الجواب بسمع الملك فإذن فقد قلعت تلك الكلمة من الكتاب لأنها لم تكن من كلامي ولم أجد سبيلاً الى قطع لسان رسولك فلما عاد الرسول وأعاد الجواب الى الاسكندر استدعى الرسول وصاح عليه وقال له ويلك من وضعك على اختلاف ملك من الملوك بتلك الكلمة التي تكلمت بها فأقر الرسول وقال إنه قصر في حقي وأسخطني فقال اسكندر سبحان الله أظننت أنا أرسلناك لتصلح أمورك أو تسعى في حقوق الناس الينا ثم أمر به فسل لسانه من قفاه .

* * *

فصل

يجب على السلطان أنـه متى وقعت رعيته في ضـائقـة أو حصلوا في شدة وفاقة أن يعينهم لاسيما في أوقات القحط وغلاء الأسعـار حيث يعجزون عن التعيش ولا يقـدرون على الاكتسـاب فينبغي حينئـد للسلطان أن يعينهم بـالطعـام ويساعـدهم من خزائنـه بالمـال ولا يمكن أحداً من حشمـه وخدمـه وأتبـاعه أن يجـور على رعيته لئـلا يضعف النـاس وينتقلوا الى غيـر ولايتـه ، ويتحولـوا الى سـوى مملكته ، فينكسـر ارتفـاع السلطان ، ويقـل حـاصـل الديوان ، وتعود المنفعة على ذوي الاحتكار ، الذين يسرون بغلاء الأسعار ، ويقبح ذكر الملك ويدعى عليه ولاجل هذا كـان الملوك المتقدمـون يحذرون من هذا غاية الحذر ويراعون الرعايا من خزائنهم ، ويساعدونهم من ذخائرهم ودفائنهم .

حكـاية : يقـال أنه كـان رسم ملوك العجم أن يـاذنـوا لـرعـايـاهم في الـدخول اليهم في أيـام النوروز والمهـرجان وكـان المنادي ينـادي قبل ذلـك بثلاثة أيـام أن استعدوا لليـوم الفلاني ليـأخذ كـل من الناس أهبتـه ، ويصلح أمره ويكشف قصته ، ويتيقن حجته ، ومن كان لـه خصم يعلم أنه يتـألم منه عند الملك طلب رضاه فـإذا كان ذلـك اليوم وقف المنـادي على باب الملك ونادى ان منع انسان إنسانـاً من الدخـول على الملك كان الملك بـريئاً من دمـه ثم كـانت تؤخذ القصص من النـاس وتوضـع بين يدي الملك وكـان ينظر في كـل واحدة منهـا على الانفـراد ومـوبـذان قـاعد عن يمينـه ومـوبـذان بلسانهم قاضي القضاة وإن كان في القصص قصـة يتألم فيهـا من الملك قام الملك من مقامه وبرك بين يدي موبذموبذان مقـابل خصمـه وقال انصف أولاً هـذا الرجـل مني ولا تخلد الى الميل والمحـاباة ولا تختـرني عن نفسك لأن

اللّه تعـالى إذا أهدى الحـظوظ الى عباده اختـار لهم وولى عليهم خير خلقـه وإذا أراد أن يرى عباده أي قدر لذلـك الخليفة عنـده أطلق على لسانـه ما لم يطلق على لسانك ثم كان ينظر الموبذان فان كان بين الملك وخصمه دعـوى صحيحة وقامت البينـة على الملك أخذ الحق منـه بتمامـه وكمالـه ، وإن لم يكن بين الملك وخصمـه دعوى صحيحـة وكانت دعـواه بـاطلة لا يتبت على صحتهـا حجة أمـر بعقوبتـه ونـادى عليـه هـذا جـزاء مں يـريـد عيب الملك والمملكة وكان الملك إذا فرغ من الدعاوى واستوى على سـرير ملكـه وضع التاج على مفرقـه وأقبل على جمـاعته وخـاصته وقـال إنما انصفت من نفسي لئـلا يطمـع أحد منكم في الـظلم والجور على أحـد فكل من كـان لـه منكم خصم فليرضه وكان يبعد في ذلك اليوم كل من كان قريباً منـه ومن كان قـوياً ضعف عنـده وكانت الملوك على هـذا السبيل وعلى هـذا المذهب الى أيـام يزدجرد الاثيم فانه عبر قواعد بني ساسـان وظلم الخلق وافسد حتى جـاء في بعض الأيام فرس في غـاية الجـودة والكمال بحيث أنـه لم ير أحـد في ذلك الزمان مثله في حسن خلقته ، وجمال هيئته ، فدخـل من باب الـدار واجتهد جميـع من في عسكره أن يلزمـوه فامتنـع منهم ولم يقدروا على إمسـاكه حتى وصل قريباً من يزدجرد فوقف الى جانب الايوان ساكناً فقال يزدجرد تنحوا عن هذا الفرس فلا يقربه أحد منكم فانه هـدية من اللّه تعـالى خاصـة لي فنهض من مكانه وجعـل يمسح وجهـه قليلاً ثم أمـر يده على ظهـر الفرس والفـرس ساكن لا يتحرك فاستدعى يزدجرد السرج فأسرحه بيده وجذب حـرامه وأوثقـه وانحرف نحو كفله ليضع التفر فيه فرفسه الفرس على فؤاده رفسة محكمة فخر ميتـاً في الحال وخـرج الفرس ولـم يعلم أحـد من أين جاء ولا إلى أين ذهب فقال الناس كان هذا الفرس ملكاً ارسله اللّه تعالى ليهلكه ويخلصنا من جوره وطلمه .

حكاية : قال القاضي أبو يوسف حضر عندي في مجلس حكمي يحيى ابں حالد البرمكي مع خصم لـه مجوسي فـادعى المجوسي عليـه فطلب منـه الشـاهد فقـال مالي سـاهد فحلفـه فحلفت يحيى بن حالـد وأرضيت خصمه

باحلافه وساويت في الحكم بين يحيى وبين المجوسي لعزة الاسلام وما ملت قط مع أحد ولا حابيت أحداً خوفاً أن يسألني اللّه تعالى عن ذلك بل يجب أن يعرف قدر الزعماء والأكابر وينبغي للاكابر أن لا يظلموا أصاغرهم وإن يعظموا أمر الحق ويطيعوا أمر السلطان ولا يعصوه في حال ليكونوا قد عملوا بقول اللّه تعالى: ﴿**أطيعوا اللّه وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم**﴾[1] ومن يجعل اللّه له هذه المرتبة الشريفة ، والدرجة المنيفة ، ويقرن طاعته بطاعته جل اسمه وطاعة رسوله صلى اللّه عليه وسلم فالواجب على الخلق أن يطيعوه ويخافوه ويجب على السلطان شكر هذه النعمة والطاعة لربه تعالى وامتثال ما أمره به من العدل والاحسان والرأفة بالمظلومين . فقد قيل احذروا من دعاء المظلومين وخافوا من ظلم من لا ينتصر من ظلمه الا بدمع عينيه فما دون دعاء المظلوم حجاب ، ودعاؤه مستجاب ، لاسيما الدعاء في الاسحار ، والتضرع في هدوء الليالي الى الجبار ، كما قال الشاعر :

فلا تعجلن بالجور ما دمت قادراً — فآخره اثم وخوف عذاب
تنام وما المظلوم عنك بنائم — ودعوته لا تنثني بحجاب

وقال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم تأسفت على موت أربعة من الكفار على أنو شروان لعدله وحاتم الطائي لسخائه وأمرىء القيس لشعره وأبي طالب لبره .

---

(١) سورة النساء ، الآية : ٥٩

الباب الثاني

في سياسة الوزارة وسيرة الوزراء

اعلم أن السلطان يرتفع ذكره ويعلو قدره بالوزير إذا كان صالحاً كافياً عادلاً لأنه لا يمكن لأحد من الملوك أن يصرف زمانه ويدبر سلطانه بغير وزير ومن انفرد برأيه زل من غير شك . ألا ترى أن النبي صلى اللّه عليه وسلم مع جلالة قدره وعظم درجته وفصاحته أمره اللّه تعالى بالمشاورة لأصحابه العقلاء العلماء فقال عز من قائل : ﴿ **وشاورهم في الأمر** ﴾[1] . وأخبر في موضع آخر عن موسى عليه السلام : ﴿ **واجعل لي وزيراً من أهلي * هارون أخي * اشدد به أزري * وأشركه في أمري** ﴾[2]. وإذا لم يستغن الأنبياء عليهم السلام عن الوزراء واحتاجوا اليهم كان غيرهم من الناس أحوج .

سئل ازدشير بن بابك أي الأصحاب أصلح للملك؟ فقال الوزير العاقل المتقن الأمين الصالح التدبير ليدبر معه أمره ويشير إليه بما في نفسه . وعلى السلطان أن يعامل الوزير بثلاثة أشياء .

أحدها : إذا ظهرت منه زلة أو وجدت منه هفوة لا يعاجله بالعقوبة .

الثاني : إذا استغنى في خدمته وأينع ظله في دولته لا يطمع في ماله وثرونه .

التالث : إذا سأله حاجة لا يتوقف في قضاء حاجته وينبغي أن لا يمنعه

---

(١) سورة آل عمران ، الآية . ١٥٩ .

(٢) سورة طه ، الآيات ٢٩ ـ ٣٢

من ثلاثة أشياء وهي متى أحب أن يراه لا يمنعه من رؤيته وأن لا يسمع في حقه كلام مفسد ، ولا يكتم عنه شيئاً من سره لأن الوزير الصالح حافظ سر السلطان ومدبر أحوال المملكة وعمارة الولايات والخزائن وزينة المملكة وشدة الهيبة والقدرة وله الكلام على الأعمال واستماع الأجوبة وبه يكون سرور الملك وقمع أعدائه وهو أحق الناس بالاستماع له وتفخيم القدر ، وتعظيم الأمر . وقال لقمان لابنه أكرم وزيرك لأنه إذا رآك على أمر لا يجوز أن يوافقك عليه . وينبغي للوزير أن يكون مائلاً في الأمور الى الخير متوقياً من الشر وإذا كان سلطانه حسن الاعتقاد ، مشفقاً على العباد ، كان له عوناً على ذلك وأمره بالازدياد ، وإذا كان سلطانه ذا حنق أو كان غير ذي سياسة كان على الوزير أن يرشده قليلاً قليلاً بألطف وجه ويهديه الى الطريق المحمودة ، وينبغي أن يعلم أن دوام الملك بالوزير وأن دوام الدنيا بالملك ، وينبغي أن يعلم أنه لا يجوز له أن يهتم بغير الخير ويعلم أنه أول إنسان يحتاج إليه السلطان .

وسئل بهرام جور الى كم يحتاج السلطان حتى تتم سلطنته وتتكامل بالسرور دولته . فقال الى ستة من الأصحاب : الوزير الصالح ليظهر اليه سره ، ويدبر معه رأيه ويسوس أمره ، والفرس الجواد لينجيه يوم الحاجة الى النجاة والسيف القاطع والسلاح الحصين ، والمال الكثير الذي يخف حمله ويثقل ثمنه كالجوهر واللؤلؤ والياقوت ، والزوجة الحسناء لتكون مؤنسة لقلبه ، مزيلة لكربه ، والطباخ الخبير الذي إذا أمسك شيئاً دبره بلطفه .

حكمة : قال ازدشير : حقيق على الملك أن يكون طالباً لأربعة فإذا وجدهم احتفظ بهم : الوزير الأمين ، والكاتب العالم ، والحاجب المشفق . والنديم الناصح لأنه إذا كان الوزير أميناً دل على بقاء الملك وسلامته . وإذا كان الكاتب عالماً دل على عقل الملك ورزانته . وإذا كان الحاجب مشفقاً دل على رضا الملك عن رعيته ، ولم يغضب على أهل مملكته . وإذا كان النديم صالحاً دل على انتظام الأمر وصلاحه .

حكمة : قال موبذان في عهد أنو شروان أنه لا يمكن حفظ السلطنة

إلا بالأصحاب الاخيار الناصحين المساعدين ولا ينفع خير الأصحاب إلا إذا كان الملك تقياً لأنه ينبغي أن يكون الأصل جيداً ثم الفرع ، ومعنى تقوى السلطان وصدقه وصحته أن يكون صحيحاً في سائر الأمور يأمرٍ بالصحة بأقواله وأفعاله ليصح بصحته سائر حشمه ورعيته وأن يكون واثقاً بالله تعالى وأن يرى أن قوته وقدرته وظفره بأعدائه ونصرته ووصوله الى مراده من الله تعالى وأن لا يعجب بنفسه فان أعجب خشي عليه الهلاك كما جاء في الحكاية .

حكاية : يقال ان سليمان عليه السلام كان جالساً على سرير ملكه وقد حملته الريح في الجو فنظر سليمان الى مملكته وطاعة الإنس والجن وانقيادهم لعظيم هيبته وسياسته فاضطرب السرير وهم بالانقلاب فقال سليمان للسرير ابستقم فنطق السرير وقال استقم أنت حتى نستقيم نحن كما قال عز من قائل : ﴿ **إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم** ﴾[1] وقال أبو عبيدة في أمثاله (من سلك منهج الجد أمن العثار) ويحب أن يكون الوزير عالماً عاقلاً شيخاً لأن الشاب وإن كان عاقلاً لا يكون في التجربة كالشيخ والذي يتعلمه الناس من تجارب الأيام لا يتعلم إلا من المشايخ والوزير زين السلطنة والزين يجب أن يكون صالحاً طاهراً من الشين ويحتاج الوزير الى خمسة أشياء لتحمد خبرته ، وتحسن سيرته ، التيقظ ليظهر في كل أمر يدخل فيه له وجه المخرج منه ، والعلم حتى تتضح له الأمور الحقيقية ، والشجاعة حتى لا يخاف من شيء في غير موضع الخوف ، والصدق لئلا يعمل مع أحد غير الصحيح وكتمان سر السلطان الى أن يدركه الموت .

قال أزدشير بن بابك يجب أن يكون الوزير ساكناً متمهلاً شجاعاً واسع الصدر حسن المقال مليح الوجه مستحيياً صامتاً حيث يحسن الصمت ومتكلماً إذا حسن الكلام ومع ذلك يجب أن يكون تقياً حسن المذهب ليطهر

---

(١) سورة الرعد ، الآية : ١١ .

نفسه وينفي عنها كل ما لا يليق ولا بد من حسن الاعتقاد ، وينبغي أن يكون ذا تجارب ليسهل الأمور على الملك متيقظاً لينظر عواقب الأمور ، ويخاف عليه من تصاريف الدهور ويتحفظ أن يصيبه عيب الزمان وكل ملك كان وزيره له محباً وعليه مشفقاً كان ذلك الوزير كثير الأعداء وكان أعداؤه أكثر من أصدقائه ، ولا يجوز للسلطان أن يسمع في وزيره كلام المحرضين عليه الساعين به إليه ليحسده أصدقاؤه ، وتنكبت أعداؤه . ويجب أن يكون الوزير محمود الطريقة حتى إذا رأى في الملك خلة مذمومة غير رشيدة رده الى العادة المستقيمة الحميدة من غير غلظة شديدة ، لأن الملك إذا كان على ما لا يريده وسمع ما يكرهه منه من التقريع عمل شراً من ذلك ، والدليل على ذلك أن الباريء تعالى لما أرسل موسى الى فرعون بأمره قال عز من قائل : ﴿ **فقولا له قولاً ليناً** ﴾[1] وإذا كان الحق سبحانه وتعالى أمر نبيه عليه السلام أن يقول لعدوه قولاً ليناً فالناس أجدر أن يلينوا أقوالهم ، وإن كان السلطان يخشن كلامه فلا يجوز للوزير أن يحقد عليه ويصبر على كلامه في قلبه فإن قدرة الملك تطلق لسانه فينطق بما يريد . وإذا كان الوزير محباً للملك صحيح المقال ، حسن الفعال كان له عوناً على ذلك وأمره بالملازمة لذلك ، ولا يجوز أن يعدد حسناته على الملك ولا يمتن بها عليه . قال أهل الفطنة إذا أحسنت إلى أحد وعددت حسناتك عليه كان شراً من الامتنان تقريعك عليه . وينبغي أن يعلم الوزير وسائر خاصة الملك انهم مهما فعلوه من حسن فإن ذلك بإقبال الملك وببركة ظله انفعل فالمنة حينئذ تصلح أن تكون له على الناس ، وأعظم فساد ينشأ في دولة الملك يكون من أمرين : أحدهما من الوزير الخائن ، والثاني من نية الملك الرديئة الفاسدة .

قال أنو شروان شر الوزراء من جرأ السلطان على الحرب وجرأه على القتال في موضع يمكن أن ينصلح الحال بغير حرب لأن الحرب في سائر الأحوال تفني ذخائر الأموال ، وفيها تبذل كرائم النفوس ومصونات الأرواح .

---

(١) سورة طه ، الآية ٤٤

وقال أيضاً كل ملك كان وزيره جاهلاً فمثله كمثل الغيم الـذي يبدو ويـظهر ، ولا يندي ولا يمطر .

حكمة : في كتاب وصايا أرسطاطاليس : كل أمر ينقضي على يـد غيرك بلا حرب ولا خشونة فهو خير مما تقضيه بيدك .

وترتيب الوزراء أنهم متى أمكنهم أن يحاربوا بالكتب فليحاربوا وان لم تتأت الأمور بـالاحتيال والتـدبير فليحتـالوا في تـأتيها بعـطاء الأموال ، وبـذل الصـلات والنوال ، ومتى انهـزم عسكر عفـوا عن جنود الجنـد ولا يستعجلوا بقتلهم لأنه قد يمكن قتـل الأحياء ولا يمكن أحيـاء القتلى فإن الـرجل يصيـر رجلاً في أربعين سنة ومن مائة رجـل يكون رجـل يصلح لخدمـة الملوك وان أسـر أحد من الجنـد من أصحاب الملك كـان على الوزيـر أن يفكه ويفـديه ويخلصه ويشتريه ليسمع الجند بصنيعه فتقـوى قلوبهم إذا باشـروا حروبهم ، وعلى الوزير أن يحفظ أرزاق الجند كل إنسان على قدره وإن يـدرب الرجـال الشجعـــان بـآلات الحـــرب ، وان يخـاطبهم بـأحسن كـــلام ويلين لهم في الخطاب ، ويلطف بهم في الجواب ، فان الجند قـد قتلوا كثيراً من الـوزراء في قديم الأيام ، وسالف الأعوام ، ومن سعادة السلطان ويمن طالعه وتوحده أن يسهل اللّه له وزيراً صالحاً ، ومشيراً ناصحاً . وقـال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : إذا أراد اللّه بأمير خيراً قيض له وزيراً نصيحاً صادقاً صبيحاً، ان نسي ذكره وان استعان به أعانه .

قـال مؤلف الكتاب إن اللّه سبحـانه وتعـالى يظهـر قدرتـه في كل حين وزمان ، ووقت وأوان ، ويصطفي جماعة يختـارهم من عباده مثـل السلاطين والوزراء وأكابر العلماء ليعمر بهم الدنيا .

ومن عجائب الزمان حديث البرامكة الذين لم يوجد لهم في الدنيا نظير في الكرم والعطاء ، وبذل المعروف والسخاء . وكان تحت حكمهم الولايات الوافرة المـرتفعات وبعـد انقراضهم فسـدت أحوال الـوزراء ولم يبق لخدمـة الملوك رونق ولا نضـارة الى أن أوجد اللّه تعـالى بركـات آل سلجـوق وظـل

دولتهم الى النظام وأوصلهم الى درجة الوزراء المتقدمين وأرفع بحيث أنه لم يبق أحد في الدنيا من أهل الفضل والادباء ، وأبناء السبيل الغرباء ، من شريف ووضيع إلا هو مشمول بإحسانهم ، مغمور بامتنانهم ولم يكن أحد من خيرهم محروماً وإنما ذكرنا هذا ليعلم من يقرأ كتابنا هذا الفرق بين الصالح وغير الصالح .

حكمة : قال بزرجمهر: لا تقاس الأشياء بعضها ببعض لأن جوهر الناس أجل من كل جوهر وانما زينة الدنيا جميعها بالناس ، والباري تعالى لا ينسب الى الخطأ وهو واهب الصلاح لمن يشاء وأنه يؤتي كل أحد ما يصلح له ويليق به فينبغي أن يكون وزراء الملوك ومدبرو دولتهم على هذه الصفة وان يحفظوا رسوم المتقدمين وطرائقهم وان يلتمسوا الأموال التي تؤخذ من الرعية في أوقاتها وأحيانها ، وعند وجوبها واتيانها ، وليعرفوا الرسم ويحملوا الرعية بحسب طاقتها وقدرتها ، وان يكونوا في تصيدهم كصائد الكركي لا قاتل العصفور . ولا يجوز أن يحرصوا على تناول أموال المواريث مادام الوارث موجوداً فالطمع في ذلك مشؤوم غير جائز ويجب عليهم استمالة قلوب الرعية والحشم ، بهبات الفوائد والنعم ، ليعلموا أن كفايتهم وسمو مرتبتهم وصلاحهم ، منوط بصلاح الرعية ليحسن ذكرهم في الدنيا وينالوا جزيل الثواب في العقبى .

الباب الثالث

في ذكر الكتاب وآدابهم

قالت العلماء ليس شيء أفضل من القلم لأنه به يمكن اعادة السالف والماضي . ومن فضل القلم وشرفه ان اللّه تعالى اقسم به فقال عز من قائل: ﴿**ن والقلم وما يسطرون**﴾[1]. وقال تعالى: ﴿**اقرأ وربك الأكرم* الذي علم بالقلم * علم الإنسان ما لم يعلم**﴾[2]. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أول ما خلق اللّه تعالى القلم فجرى بما هو سائر الى يوم القيامة الحديث . قال عبد اللّه بن عباس في تفسير هذه الآية حكاية عن يوسف عليه السلام : ﴿**اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم**﴾[3] . قال معناه كاتب حاسب . وقال إن القلم صائغ الكلام .

حكمة : قال ابن المعتز القلم معدن والعقل جوهر والقلم صائغ والخط صناعة . قال جالينوس القلم طبيب الكلام . قال بليناس القلم طلسم كبير . قال اسكندر الدنيا تحت شيئين السيف والقلم والسيف تحت القلم والقلم أدب المتعلمين وبضاعتهم وبه يعرف رأي كل إنسان من قريب وبعيد ومهما كان الرجل مجرباً للزمان فانه ما لم ينظر في الكتب لا يكون كامل العقل لأن مدة عمر الإنسان معلومة ومعلوم أيضاً أن في هذه المدة القريبة

(١) سورة القلم ، الآية ١ .

(٢) سورة العلق ، الأيات ٣ ـ ٥ .

(٣) سورة يوسف ، الآية ٥٥

والعمر القصير كم يمكنه أن يدرك بتجربته ومعلوم أيضاً كم يمكنه أن يحفظ بقلبه . السيف والقلم حاكمان في جميع الأشياء ، ولولا السيف والقلم ما قامت الدنيا .

وأما الكتاب فلا يجوز لهم أن يعرفوا أكثر من حدود الكتابة ليصلحوا لخدمة الاكابر . وقالت الحكماء والملوك القدماء : ينغي أن يكون الكاتب عالماً بعشرة أشياء . الأول بعد الماء وقربه تحت الأرض ، ومعرفة استخراج الافتاء ، ومعرفة زيادة الليل والنهار ونقصانهما في الصيف والشتاء وسير الشمس والقمر والنجوم ، ومعرفة الاجتماع والاستقبال ، والحساب بالأصابع وحساب الهندسة والتقويم واختيارات الأيام وما يصلح للمزارعين ومعرفة الطب والأدوية ، ومعرفة ريح الجنوب والشمال ، وعلم الشعر والقوافي . ومع هذا كله ينبغي أن يكون الكاتب خفيف الروح طيب اللقاء عالماً ببراية القلم وتدبيره وقطه ورفعه وخطه ومهما كان في قلبه أظهره بسنان قلمه وان يحرس نفسه من طغيان قلمه وينبغي أن يعلم أي حرف يجوز أن يمد وأي حرف ينبغي أن يكون مجتمعاً متصلاً . وأن يكون الخط مبيناً ويعطي كل حرف حقه كما يحكى أنه كان لامير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه عامل فكتب الى عمرو بن العاص كتاباً ولم يظهر سين بسم اللّه الرحمن الرحيم فاستدعاه عمرو وقال له اظهر أولاً سين بسم اللّه ثم توجه بعد ذلك الى عملك . وأول ما ينبغي للكاتب أن يعلم براية القلم فإن الإنسان إذا كان يحسن الخط ويعرف أن يبري قلمه فإن الخط على كل حال يجيء صالحاً .

حكاية : كان لشاهنشاه عشرة من الوزراء وكان في جملتهم الصاحب إسماعيل بن عباد فاجتمع الوزراء على تنكبسه واتفقوا على التضريب عليه وقالوا أن الصاحب لا يقدر أن يبري قلمه فلما علم بذلك شاهنشاه جمعهم جملتهم فقال لهم الصاحب أي أدب فيكم ليس لي مثله حتى تتجاسروا أن تتحدثوا عني بحضرة شاهنشاه وأن أبي علمني الوزارة ولم يعلمني التجارة أقل أدبي براية القلم وهل فيكم من يقدر أن يكتب كتاباً تاماً بقلم مكسور

الرأس فعجز الجماعة عن دلك فقال له شاهنشاه اكتب أنت فأخذ الصاحب قلماً وكسر رأسه وكتب به درجاً تاماً فأقر الجماعة بفضله ، واعترفوا بسدا ونبله ، وأجود الأقلام ما كان مستقيماً أصفر اللون رقيق الوسط ، بقلم المحرف من جانبه الايمن يصلح للخط العربي والفارسي والعبري واللسان الدري يجب أن يكون قلمسه محرفاً من الجانب الأيسر ، وخير الأقلام ما وصفه يحيى بن جعفر البرمكي في كتاب كتبه الى يحيى بن ليث قلم لا غليظ ولا رقيق وسطه دقيق ، يجب أن تكون السكين التي يبرى بها الأقلام في غاية الحدة وأن تكون براية القلم على شكل منقار الكركي محرفاً من الجانب الايمن ، وينبغي أن يكون المقط الذي يقط عليه في غاية الصلابة ، ويجب أن تكون الانقاش فارسية خفيفة الوزن والكاغد صقيلاً متساوياً وأن يجاد حل الانقاش وكل حرف من ثلاثة أحرف يجب أن يمد وما كان أقل لا يجوز مده لانه يتوحش بذلك الخط وأن تكون صور الحروف يشبه بعضها بعضاً ولا يقدر على ذلك إلا حكيم عاقل أو من تعودت بذلك أنامله .

وكان عبد اللّه بن رافع كاتباً لامير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم اللّه وجهه فقال كنت أكتب يوماً فقال لي أمير المؤمنين ألق دواتك وأطل جلفة قلمك ووسع ما بين السطور واجمع ما بين الحروف وكان عبد اللّه بن جبلة كاتباً محسناً فقال لغلمانه لتكون أقلامكم بحرية فإن لم تكن بحرية فلتكن صفراً واقطعوا عند الأقلام لئلا تنعقد الأمور ، ولا يجوز انفاذ كتاب بغير ختم فإن كرم الكتاب ختمه .

وقال عبد اللّه بن عباس في تفسير قوله تعالى : ﴿ **إني ألقي إلي كتاب كريم** ﴾[1] . أي مختوم . وأمر النبي صلى اللّه عليه وسلم أن يكتب كتاباً الى العجم وقال انهم لا يريدون كتاباً بغير ختم فختمه بخاتمه المبارك وكان عليه ثلاثة أسطر محمد رسول اللّه . خبر روى صخر بن عمرو أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم لما كتب كتاباً الى النجاشي رماه على التراب ثم أنفذه

---

(١) سورة النمل ، الآية ٢٩ .

فلا جرم أنه أسلم . ولما كتب كتاباً الى كسرى أنو شروان[1] لم يلقه على التراب لا جرم أنه لم يسلم وقال صلى اللّه عليه وسلم تربوا كتبكم فإنه أنجح لحوائجكم . وقال تربوا الكتاب فإن التراب مبارك وإذا كتب الكتاب فليقرأه قبل طيه فإن رأى فيه خطأ تداركه وأصلحه . وينبغي أن يجتهد الكاتب أن يكون الكلام قصيراً والمعنى طويلاً ، وأن لا يكرر كلمة يكتبها ، وأن يحترز من الألفاظ الثقيلة الغثة ليكون كاتبها محموداً . وفي باب الكتابة كلام طويل كثير ان ذكرناه طال الكتاب ونقتنع منه بهذا القدر فقد قيل خير الكلام ما قل ودل وجل ولم يمل .

---

(١) قوله انو شروان كذا في النسخ ولعله ابرويز فان انو شروان لم يدرك من النبوة شيئاً

الباب الرابع

في سمو همم الملوك

قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه اجتهد أن لا تكون دنيء الهمة فاني ما رأيت أسقط لقدم الإنسان من تداني همته. وقال عمرو بن العاص المرء حيث وضع نفسه يريد إن أعز نفسه علا أمره ، وان أذلها ذل وهان قدره . وتفسير معنى الهمة أن يرفع نفسه فإن أنفة القلب من همم الاكابر لانهم يعرفون قدر أنفسهم فيعزونها ولا يرفع أحد قدر أحد حتى يكون هو الرافع لقدر نفسه . واعزاز المرء نفسه أن لا يختلط بالاراذل ولا يشرع في عمل ما لا يجوز لمثله أن يعمله ولا يقول ما يعاب به والهمة والأنفة للملوك لأن اللّه ركب فيهم هذه الخصلة ليتعلمها منهم الوزراء والندماء كما جاء في الحكاية .

حكاية : أمر أبو الدوانيق لرجل بخمسمائة درهم فقال أحمد بن الخصيب لا يجوز للملك أن يهب ما دون الألف من الاعداد . وكان هارون الرشيد يوماً راكباً في موكبه فسقط فرس رجل من عسكره فقال هارون ليعط خمسمائة درهم فأشار إليه يحيى بعينه وقال هذا خطأ فلما نزلوا قال الرشيد أي خطأ بدا مني حتى أشرت الي بعينك فقال لا يجوز أن يجري على لسان أحد من الملوك أقل من الألف من الاعداد فقال الرشيد فإن اتفق أمر لا يجوز أن يعطى فيه أكثر من خمسمائه درهم مثل هذا فكيف يقال فقال قل ليعطى فرساً فيدفع إليه فرس على جاري العادة والرسم وتكون قد نزهت همتك عن

ذكر الحقير . ولهـذا خلع المأمـون ولده من ولايـة عهده وذلـك أن المأمـون اجتاز بحجرة العباس فسمعه يقول لغلامه يا علام قد رأيت بباب الرصافة بقلاً حسنـاً فخذ نصف درهم وصـل الى باب الـرصـافـة وائتني بشيء منـه فنـاداه المأمون من الآن علمت أن للدرهم نصفاً اذهبَ فأنت لا تصلح لولاية العهـد وتدبير المملكة ولا يأتي منك صلاح ولا فلاح .

حكمة : في وصية نامة أزدشير لولده إذا أردت أن تهب لاحد من ولدك شيئاً فاجتهد أن لا يكون عـطاؤك أقل من دخـل ولاية أو قـرية أو قيمـة بلد أو رستـاق يستغني به الشخص الـذي تهبه وتـزول حاجتـه ويستغني اعقـابـه بـه وأولاده ما عاشوا فيحصل بـذلك في حسـاب الاحياء لا في حسـاب الأموات واجتهد انك لا ترغب في التجارة بوجه من الوجود فـإن ذلك يـدل على دناءة همة الملك .

حكمة : يقال أنـه كان للملك هـرمز بن سـابور وزيـر فكتب إليه كتـاباً يـذكر فيـه أنه وصـل من جانب البحـر تجار معهم اللؤلؤ واليـاقوت والجـواهر النفيسـة القيمة وانني ابتعت منهم بـرسم الخزانـة بمبلغ ألف دينار والآن قـد حضر فلان التاجر وهو يطلب الجوهر بربح كثير فإن رغب مولانا فليـرسم بما يرى. فكتب هرمز جوابه وقال مائة ألف ومائة ألف مثلها وأمثالها ليس لها في أعيننـا خطر ولا نـرغب فيها بـوجه من الـوحوه وإذا عملنـا بحق التجارة فمن يعمل بحق الامارة والسلطنـة فانـظر أيها الجـاهل لنفسـك ولا تعد لمثـل هذا الكلام ولا تخلط في أموالنا درهماً واحداً ولا دانقاً فرداً من أرباح التجارة فإن ذلك يسقط قيمة الملك ويزري بحسن اسمه ، ويعود بقبح قاعدتـه ورسمه ، ويضر بصيته في حال حياته وبعد وفاته .

حكاية : حكي أن الأمير عمارة بن حمـزة كان في بعض الأيـام جالسـا في مجلس الخليفة المنصور وكـان يوم نـظره في المظالم فنهض رجـل على قدميه وقال انا مظلوم فقال من ظلمك فقال عمارة بن حمزة اغتصب ضيـاعي وابتـز ملكي وعقاري فـأمره المنصـور أن يقـوم من مقـامـه ويسـاوي خصمـه للمحاكمة فقال عمارة يا أمير المؤمنين ان كـانت الضياع لـه فما أنـازعه فيهـا

وإن كانت لي فقد وهبتها له ومالي حاجة في محاكمته وما أبيع مكاني الذي أكرمني به أمير المؤمنين بضياع ولا غيرها فتعجب الأكابر الحاضرون من علو همته ، وشرف نفسه ومروءته ، الهة والنهمة على شكل واحد وكل إنسان له منهما نصيب فواحد بالسخاء وإطعام الطعام وآخر بالعلم وآخر بالعبادة والقناعة والزهادة ، وترك الدنيا ، وطلب العقبى وآخر بطلب الزيادة . وأما الهمة بالسخاء وبذل المال ، واسداء النوال فينبغي أن تكون كما جاء في الحكاية .

حكاية : يقال أن يحيى بن خالد حرج يوماً من دار الخلافة راكباً الى داره فرأى على باب الدار رجلاً فلما قرب نهض قائماً وسلم عليه وقال يا أبا جعفر أنا محتاج الى ما في يدك وقد جعلت اللّه وسيلتي اليك فأمر يحيى أن يفرد له موضع في داره وان يحمل إليه في كل يوم ألف درهم وأن يكون طعامه من طعامه المخنص به فبقي على ذلك شهراً كاملاً فلما انقضى الشهر كان قد وصل إليه ثلاثون ألف درهم فأخذ الرجل الدراهم وانصرف فقيل ليحيى في ذلك فقال واللّه لو أقام مدة عمره ، وطول دهره ، ما منعته صلتي ولا قطعت عنه ضيافتي .

حكاية : كان لجعفر بن موسى الهادي جارية عوادة تعرف ببدر الكبرى ولم يكن في زمانها أحسن وجهاً منها ولا أحذق بصناعة الغناء وضرب الأوتار منها وكانت في غاية الكمال ، ونهاية الجمال ، فسمع بخبرها محمد ابن زبيدة الأمين فالتمس منه أن يبيعها له فقال له جعفر أنه لا يجيء من مثلي بيع الجواري ، ولا المساومة في السراري ، ولولا أنها مزينة داري ، لأنفذتها إليك ، ولم أبخل بها عليك . ثم بعد ذلك بأيام جاء محمد ابن زبيدة الى داره فرتب مجلس الشراب وأمر بدراً أن تغني له وتطربه فأخذ محمد في الشراب والطرب ومال على جعفر بكثرة الشرب حتى اسكره وأخذ الجارية معه الى داره ولم يمد اليها يده من شرف نفسه وهمته ثم رسم من الغد باستدعاء جعفر فلما حضر قدم بين يديه الشراب وأمر الجارية أن تغني من وراء الستر فسمع جعفر غناءها فلم ينطق من شرف نفسه ولم يظهر تغيراً في محاضرته ثم أمر محمد الأمين أن يملأ ذلك الزورق الذي ركب فيه

جعفر إليه دارهم فكانت الفي ألف بدرة وجملتها عشرون ألف ألف درهم حتى استغاث الملاحون وقالوا ما بقي الزورق يحمل شيئاً آخر وأمر بحمله الى دار جعفر والجارية أيضاً . هكذا كانت همم الأكابر . وسئل بعض الحكماء من أعلا الناس حالاً فقال أعلاهم همة وأكثرهم علماً ، وأغزرهم فهماً واصفاهم حالاً فقيل له فبمن ينبغي أن يتوصل ليخلص من نحوسة حظه وضائقته فقال بالملوك والأكابر وذوي الهمم العالية ، والنفوس الشريفة السامية ، كما قيل جاور بحراً أن ملكاً .

حكاية : قال سعد بن سالم الباهلي اشتدت بي الحال في زمن الرشيد واجتمع علي ديون يعجزني بعض قضائها ، وعسر علي أداؤها ، واحتشد ببابي أرباب الديون ، وتزاحم الطالبون ، ولازمني الغرماء فضاقت حيلتي ، وازدادت فكرتي فقصدت عبد اللّه بن مالك الخزاعي والتمست منه أن يمدني برأيه وإن يرشدني الى باب الفرج فقال عبد اللّه لا يقدر أحد على خلاصك من محنتك وهمك ، وضائقتك وغمك ، إلا البرامكة فقلت ومن يقدر على احتمال تكبرهم ، والصبر على تيههم وتجبرهم . فقال تصبر على ذلك لمصلحة أحوالك فنهضت الى الفضل وجعفر ابني يحيى بن خالد فقصصت عليهما قصتي وأبديت لهما غصتي . فقالا أعانك اللّه وأقام لك الكفاية فعدت الى عبد اللّه ابن مالك ضيق الصدر ، منقسم الفكر ، منكسر القلب وأعدت عليه ما قالاه فقال يجب أن تكون عندنا اليوم لننظر ما يقدره اللّه تعالى فجلست عنده ساعة وإذا بغلامي قد أقبل فقال ببابنا بغال كثيرة باحمالها ومعها رجل يقول أنا وكيل الفضل وجعفر فقال عبد اللّه أرجو أن يكون قد جاء الفرج فقم وانظر ما الشأن فنهضت وأسرعت عدواً فرأيت ببابي رجلاً معه رقعة مكتوب فيها انك لما عدت من عندنا مضيت الى الخليفة وعرفته ما قد أفضت بك الحال إليه فأمر أن أحمل إليك من بيت المال ألف ألف درهم فقلت له هذه الدراهم يصرفها الى غرمائه فمن أين يقيم وجوه نفقاته فامر بثمانمائة ألف درهم أخرى وقد حملت أنا من خاصتي الف ألف درهم فصارت الجملة الفي ألف درهم وثمانمائة ألف درهم أصلح بها أحوالك .

حكاية : يقال انه كان لانو شروان نديم وكان في مجلس الشراب جـام من ذهب مرصع باللؤلؤ والجواهر النفيسة فسرقه النديم ونظر اليه أنو شروان فرآه وهو يخفيه فجاء الشرابي وطلب الجام فلم يجده فنادى يا أهل المجلس قد ضاع لنا جام مرصع بالجواهر فلا يخرجن أحـد حتى يرد الجـام فقال أنـو شروان مكنهم من الخروج فـإن الذي سـرق الجام لا يـرده والذي رآه لا يقـر عليه فأين كـان السخاء وعلو الهمـة كـانت الراحـة والخير ولكن من ينكر الاحسـان ، ويجحد الامتنان لا أصل له ومن لا أصل لـه لا يقـدر أن يستر فكره .

حكاية : يقال أن الرشيد استدعى صـالحاً في التـاريخ الـذي تغير فيـه على البرامكة وقال يا صالح صر الى منصور بن زياد وقل لـه لنا عليـك عشرة آلاف ألف درهم نـريـد أن تحصلهـا في هـذه السـاعـة وان لم يحصلهـا الى المغرب فخذ رأسه عن جسده وأْتني به واياك ومراجعتي في شيء من أمره . قال صالح فصرت الى منصور وعرفتـه ما ذكـره الرشيـد من سياستـه فقال لـه هلكت وحلف أن جميـع أسبابـه وأملاكـه لا يقوم بمـائة ألف درهم فمن أين يقوم بتحصيل عشرة آلاف ألف درهم قال صالح فقلت له دبر حيلة في أمـرك فاني لا أقدر أن أمهل ولا أحابي فيما أمر بـه أمير المؤمنين فقـال احملني الى بيتي أودع أولادي وأهلي وصبيتي وأوصي أقـاربي فجعل منصـور يـودع أهـل بيته وارتفع في منزله البكاء والاستغاثة والصراخ . قـال صالـح فقلت له ربمـا يكون لك فرج على أيدي البرامكة فامض بنا اليهم فأخذ يبكي ويصـرخ حتى أتينا يحيى بن خالد فقصصت عليه القصة وشرحت عليه ما ناله فـاغتم لذلـك وأطرق الى الأرض ساكتاً زماناً ثم رفع رأسـه ثم استدعى خـازنه وقال لـه كم في خزانتنا من الـدراهم فقال مقـدار ألف ألف درهم فأمـر باحضـارها وأنفـذ قاصداً الى الفضل ولده فقال للرسول قل له انه عرض بيع ضياع جليلة فـانفذ مـا عندك من الـدراهم فانفـذ ألفي ألف درهـم وأنفذ بـآخـر الى جعفـر وقـال للرسول قل له اتفق لنا شغل ونحتاج فيـه الى شيء من الدراهم فـانفذ جعفـر ألفي ألـف درهـم فقال منصـور يا مولاي قـد تمسكت بك ومـا اعرف خـلاصي إلا منك واتمام بقيـة ديني فاطـرق يحيى الى الأرض وبكى وقال يـا غلام إن

أمير المؤمنين هارون الرشيد كان وهب جاريتنا العوادة دنانير وجوهرة عظيمة القيمة فامض إليها وقل لها تنفذ تلك الجوهرة فمضى الغلام وأتى بها اليه فقال يحيى يا صالح أنا ابتعت هذه لامير المؤمنين من التجار بمائتي ألف درهم ووهبها أمير المؤمنين لدنانير العوادة وإذا رآها عرفها وقد تم الآن مال مصادرة منصور يا صالح قل لامير المؤمنين ليهب لنا منصوراً . قال صالح فحملت المال والجوهرة الى الخليفة فبينما نحن في الطريق أنا ومنصور اذ سمعته يتمثل ببيت من الشعر فتعجبت من رداءته وفساده ، وخبث أصله وميلاده ، وهو هذا البيت .

فما استوهبتني متمسكاً بي ولكن خفت من ألم النبال

قال صالح فحردت عليه وقلت ما على وجه الأرض خير من البرامكة ولا شر منك اشتروك وانقذوك من الهلاك ، ومنوا عليك بالفكاك ولم تشكرهم وتحمدهم ولم تفعل فعل الاحرار وقلت ما قلت ثم مضيت الى الرشيد وقصصت عليه القصة وعرفته ما جرى وكتمت عنه ما جرى من منصور من خبث الطوية مخافة على نفسه من الرشيد فعند ذلك تعجب وأمر برد تلك الجوهرة وقال شيء وهبناه لا يجوز ان نعود فيه فأعدتها الى يحيى وقصصت عليه القصة وما جرى من منصور من سوء فعله . قال يحيى إذا كان الإنسان مقلاً ضيق الصدر مشغول الفكر بضائقة اليد فمهما قاله ويقوله فليس ذلك من قلبه وجعل يطلب العذر لمنصور . قال صالح فبكيت وقلت لا يعود الفلك الدائر يخرج رجلاً مثلك في الوجود ، فوا أسفاً كيف يتوارى رجل مثلك له خلق مثل أخلاقك تحت التراب .

حكاية : يقال أنه كان بين يحيى بن خالد البرمكي وبين عبد اللّه بن مالك الخزاعي عداوة في السر ما كانا يظهرانها وكان سبب تلك العداوة التي بينهما أن هارون الرشيد كان يحب عبد اللّه بن مالك الى أبعد غاية بحيث أن يحيى بن خالد وأولاده كانوا يقولون إن عبد اللّه يسحر أمير المؤمنين حتى مضى على ذلك زمان والحقد في صدورهما وقلوبهما فولى الرشيد ولاية

أرمينية لعبد اللّه وسيره إليها . ثم أن رجلاً من أهل العراق كان له أدب وذكاء وفطنة فضاق ما بيده وفني ماله ، واختل عليه حاله ، فزور كتاباً عن يحيى بن خالد الى عبد اللّه بن مالك وسافر به الى أرمينية فحين وصل إليها قصد باب عبد اللّه وسلم الكتاب الى بعض حجابه فأخذ الحاجب الكتاب وسلمه الى عبد اللّه بن مالك ففضه وقرأه وتدبره وعلم أنه مزور فأذن للرجل فدخل عليه فقال له حملت بعض المشقة وجئتني بكتاب مزور ولكن طب نفساً فانا لا نخيب سعيك فقال الرجل أطال اللّه بقاء الأمير إن كان قد تقل عليك وصولي إليك فلا تحتج في منعي لحجة فأرض اللّه واسعة والرازق حي متين والكتاب الدي وصل صحيح غير مزور . فقال عبد اللّه أنا أعتمد معك أمرين وهما أن أكتب إلى وكيلي ببغداد وآمره أن يسأل عن حال هذا الكتاب الذي أتيت به فإن كان صحيحاً أعطيتك أمارة بعض بلادي وان آترت العطاء أعطيتك مائة ألف درهم مع الفرس والجنيب والحلة والتشريف . وان كان الكتاب مزوراً أمرت أن تضرب مائتي خشبة وأن تحلق محاسنك . ثم أمر عبد اللّه أن يحمل الى حجرة الحبس وان يحمل اليه ما يحتاج اليه وكتب كتاباً الى وكيله ببغداد أنه قد وصل الينا رجل معه كتاب يذكر أنه من يحيى ابن خالد وأنا سيء الظن في هذا الكتاب فيجب أن تتحقق الحال في هذا الكتاب لتعلم صحته من سقمه وعرفني الجواب فلما وصل كتاب عبد اللّه الى وكيله ركب ومضى الى باب دار يحيى بن خالد فوجده مع ندمائه وخواصه جالساً فسلم الكتاب إليه فقرأه يحيى بن خالد ثم قال للوكيل عد الينا من الغد لأكتب لك الجواب ثم التفت الى ندمائه وقال لهم ما جزاء من حمل عني كتاباً مزوراً الى عدوي فقال كل واحد منهم شيئاً يصف نوعاً من العذاب ، ويذكر جنساً من العقاب ، فقال يحيى كلكم أخطأتم وهذا الذي ذكرتم من خسة الأصل ودناءته وكلكم تعرفون قرب عبد اللّه من أمير المؤمنين وتعرفون ما بيني وبينه من البغض والآن قد سبب اللّه هذا الرجل وجعله متوسطاً في الصلح بيننا ووفقه لذلك وقيضه ليمحو حقد عشرين سنة من قلوبنا ، وتنصلح بواسطته شؤوننا وقد وجب علي أن أفي لهذا الرجل

بتأميله وأصدق ظنونه واكتب له كتاباً الى عبد الله ليتوفر على اكرامه ، واعزازه واحترامه وسمو همته . ثم إنه طلب الكاغد والدواة وكتب الى عبد الله بخط يده . بسم الله الرحمن الرحيم وصل كتابك أطال الله بقاءك وقرأته وفهمته وسررت بسلامتك ، وابتهجت باستقامتك ، وكان ظنك أن ذلك الحر زور عني كتاباً ، ولفق عني خطاباً ، وليس كذلك فإن الكتاب أنا الذي كتبته وعلى يديه أنفذته ، وليس بمزور عني ، وتوقعي من كرمك ، وحسن شيمك أن تفي لذلك الحر الكريم بأمله ، وتعرف له حرمة قصده ، وان تخصه منك بغامر الإحسان ، ووافر الامتنان ، فمهما فعلته في حقه فأنا المعتد به والشاكر عليه . ثم عنون الكتاب وختمه وسلمه الى الوكيل فأنفذه الوكيل الى عبد الله فحين قرأه ابتهج بما حواه وأحضر الرجل وقال أي الأمرين اللذين ذكرتهما تختار أن أفعل معك فقال الرجل العطاء أحب الي فأمر له بمائتي ألف درهم وعشرة أفراس عربية منها خمسة بالمراكب المحلاة وخمسة بالجلال وعشرين تختاً من الثياب وعشرة مماليك ركاب الخيول وما يليق بذلك من الجواهر المثمنة وسيره بصحبة مأمونه الى بغداد فلما وصل الى أهله قصد باب دار يحيى بن خالد وطلب الإذن فدخل الحاجب وقال يا مولانا ببابنا رجل ظاهر الحشمة جميل الهيئة حسن الجمال كثير الغلمان ، فاذن له في الدخول فدخل اليه ، وقبل الأرض بين يديه . فقال له يحيى ما أعرفك فقال أنا الرجل الذي كنت ميتاً من جور الزمان ، وغدر الحدثان ، فنشرتني وأحييتني ، أنا الذي حملت الكتاب المزور عنك الى عبد الله بن مالك فقال يحيى وما الذي فعل معك ، وأي شيء أعطاك ووهب لك . فقال من بركاتك وظلك ، وكرمك وهمتك وفضلك أعطاني ، ونولني وأعنائي ، وقد حملت جميع عطيته وها هي ببابك والأمر اليك ، والحكم في يديك ، فقال له يحيى صنيعك معي أكثر من صنيعي معك ولك علي المنة العظيمة ، واليد الجسيمة ، إذ بدلت تلك العداوة التي كانت بيني وبين ذلك الرجل المحتشم بالصداقة وأنت كنت في ذلك السبب وأنا أهب لك من المال مثل ما وهب لك . ثم أمر له من المال بمثل ما أعطاه عبد الله ابن مالك . وإنما أوردنا

هذه الحكاية ليعلم من يقرؤها أن الإنسان إذا كانت همته عالية لا يضيع أبداً كما لم يضع ذلك الرجل ولو كان خسيس الطبع لالتجأ الى عمل دنيء وتعلق بلئام الناس ولكنه لما كانت له همة سامية تهور وأقدم ، وخاطر مع رجل محتشم ، كريم الأحلاق ، طاهر الأعراق ، فوصل بذلك التهور الى مراده .
انظر الى الرجلين الكريمين المحتشمين الزعيمين السيدين ، وإلى سمو همتهما بماذا عاملاه ، وبماذا قابلاه ، ولم يريا في مروءتهما عقوبته وعذابه ونال من بركتهما طلابه وتخلص من شدة زمانه وضائقته ، وأفلت من شر محنته وعاد ذا نعمة سنية ، ورتبة علية وحصل بجميل الذكر على جزيل الأجر .

حكاية : يقال أنه تفاخر عبدان : عبد لبني هاشم وعبد لبني أمية فكل واحد منهما قال موالي أكرم من مواليك فقالا نمضي ونجرب فمضى مولى بني أمية الى واحد من مواليه وشكا حالته وضائقته وتألم من فاقته فأعطاه عشرة آلاف درهم حتى طاف على عشرة من مواليه فاجتمع له مائة ألف درهم فأخذها وأحضرها بين يدي مولى بني هاشم وقال امض أنت الى بني هاشم وجربهم وانظر كرمهم فأتى مولى بني هاشم الى الحسين بن علي رضي اللّه عنهما وشكا حاله وذكر فقره وما أفضى به الحال إليه فأمر له بمائة ألف درهم ثم مضى الى عبد اللّه بن جعفر وشكا إليه فأعطاه مائة ألف درهم ثم مضى الى عبد اللّه بن ربيعة فأعطاه مائة ألف درهم فمضى بالمال الى مولى بني أمية وقال له : إن مواليك تعلموا الكرم من موالي ، ولكن عد بنا اليهم لنجربهم ثانياً ونعيد المال إليهم فمضى مولى بني أمية الى مواليه وقال لهم قد استغنيت عن هذا المال وقد سهل اللّه تعالى لي من مكان ما أسدّ به فقري ولم يبق لي في هذه الدراهم حاجة وقد أعدتها فأخذ كل واحد منهم دراهمه ، وحمل مولى بني هاشم الدراهم الى مواليه وقال لهم قد تيسر لي من مكان ما زالت به حاجتي وانقضت وقد أعدت المال الذي أخذت منكم فاستعيدوه فقالوا نحن لا نأخذ شيئاً قد وهبناه ولا تعود هباتنا تختلط بأموالنا .

حكمة : قال بعض الحكماء اجلال الأكابر من الكرم وحسن الخلال ، واحتقار الناس من لؤم الأصل وقبح الخلال ، والهمة بغير آلة خفة وإنما

الهمة مع الجد تجمل وتلطف ، وتحسن وتظرف ، لأن الرجل إدا كان ذا همة وجدة غير مساعد لم يكن له من همته سوى الانحطاط لأنه يجب أن تكون الهمة علوية والجد عالياً ، وقد قيل أيصاً الكلام بالدرجة والعمل بالقدرة . وينبغي أن تكون الهمة الى بغداد والزاد الى فرسخين وكذا الجلال .

حكاية : كان عبد العزيز بن مروان أميراً بمصر فركب ذات يوم واجتاز بموضع وإذا برجل ينادي ولده يا عبد العريز فسمع الأمير نداءه فأمر له بعشرة آلاف درهم لينفقها على ذلك الولد الذي هو سميه ففشا الخبر بمدينة مصر فكل من ولد له في تلك السنة ولد سماه عبد العزيز . وبضد ذلك كان الحاجب تاش الأمير الكبير بخراسان فإنه اجتار يوماً بصيارف بخارى ورجل ينادي غلامه وكان اسم الغلام تاس فأمر بإزالة الصيارف ومصادرتهم وقال إنما أردتم الاستخفاف باسمي . فانطر الآن بين الحر القرشي وبين المتشرف بالدراهم . وفي هذا الباب كلام طويل ونكتفي بهذا لئلا يطول الكتاب . وينبغي أن تعلم أن الهمة وإن تأخرت فإنها توصل صاحبها الى مراده يوماً من الزمان فال الشاعر :

سعيي لمجد ولولا صدق معرفتي　　اني سأدرك ما قد كنت أطلبه
لو كنت في حدمة السلطان ذا طلب　　للزاد ما كنت من حاميه أخطبه

وإنما المحمود في الرجال أن لا يتجاوز بهمته ، فوق قدره وقدرته ، لئلا يعيش مغتماً طول زمانه ومدته ، كما قال الشاعر :

لو كنت تقنع بالكفاية لم يكن　　بالدهر أرفه منك عيشاً فبه
أو كنت يوماً فوق ذلك طامعاً　　لم تكفك الدنيا بما تحويه
ماذا يفيدّ علو همتك الذي　　لا يستجيب لنيل ما تبغيه

الباب الخامس

في ذكر حلم الحكماء

أما الحكمة فإنها عطاء من اللّه جلت قدرته يؤتيها من يشاء من عباده . قال سقراط مثل من أعطاه اللّه الحكمة وهو يعرف قدرها وهو بحرصه يعمل للدنيا وللمال الكثير كمثل من يكون في صحة وسلامة فيبيعهما بالتعب والنصب فإن ثمرة الحكمة الراحة والعلاء ، وثمرة المال التعب والبلاء . قال ابن المقفع كان لملوك الهند كتب كثيرة بحيث كانت تحمل على الفيلة فامروا حكماءهم أن يختصروها فاتفق العلماء في اختصارها فاختصروها على أربعة كلمات أحداها للملوك وهي العدل ، والثانية للرعية وهي الطاعة ، والثالثة للنفس وهي الامساك عن الطعام الى وقت الجوع ، والرابعة للانسان وهي أن لا ينظر الى غير نفسه .

حكمة : قال بعض الحكماء الناس أربعة : رجل يدري ويدري أنه يدري فذلك عالم فاتبعوه ، ورجل يدري ولا يدري أنه يدري وذلك ناس فذكروه ، ورجل لا يدري ويدري أنه لا يدري فذلك مسترشد فأرشدوه ، ورجل لا يدري ولا يدري أنه لا يدري فذلك جاهل فاحذروه .

(حكمة) سئل بعض الحكماء أي شي أقرب فقال الأجل فقيل أي شيء أبعد قال الأمل .

حكمة : قال لقمان الحكيم لولده : شيئان إدا حفظتهما لا تبالي بما ضيعت بعدهما درهمك لمعاشك ، ودينك لمعادك .

حكمة : سأل أنو شروان بزر جمهر لاي شيء يمكن أن يجعل العدو

صديقاً قال لأن تخريب العامر أسهل من عمارة الخراب وكسر الزجاج إذا كان صحيحاً أسهل من تصحيحه إذا كان مكسوراً . وقال صحة الجسم خير من شرب الأدوية ، وترك الذنب خير من الاستغفار ، وكظم الشهوات خير من كظم الحزن ، ومخالفة الهوى في الاستكبار خير من دخول النار .

حكمة : كان رجل من الحكماء المتقدمين يطوف البلاد عدة سنين وكان يعلم الناس هذه الكلمات الست وهي : من ليس له علم فليس له عز في الدنيا ولا في الآخرة ، ومن ليس له صبر فما له سلامة في دينه ، ومن كان جاهلاً لم ينتفع بعمله ، ومن لا تقوى له فما له عند اللّٰه كرامة ، ومن لا سخاء له فما له من ماله نصيب ، ومن لا طاعة له فما له عند اللّٰه حجة

حكمة : سئل بزر جمهر أي عز يكون بالذل متصلاً فقال العز في خدمة السلطان ، والعز مع الحرص والعز مع السفه .

حكمة : سئل بزر جمهر بماذا يؤدب البله فقال بان يؤمروا بكثرة الأعمال ، ويستخدموا في مشقات الأشغال ، بحيث لا يجعل لهم الى الفضول طريقاً ولا فراغاً ، قيل وبماذا يؤدب الاحساء فقال باهانتهم واحتقارهم ، ليعرفوا وضاعة أقدارهم . قيل فبماذا يؤدب الاحرار قال بالتوقف في قضاء حوائجهم . وسئل أيضاً من الكريم فقال الذي يهب ولا يذكر أنه وهب .

حكمة : قيل لاي سبب تتلف الناس نفوسهم لاجل المال فقال لانهم يظنون أن المال خير الأشياء ولا يعلمون أن الذي يراد من أجله المال خير من المال .

حكمة : قيل له أيكون شيء أعز من الروح بحيث تعطي الناس فيه أرواحهم ولا يبالون فقال ثلاثة هي أعز من الروح الدين والعقل والخلاص من الشدائد . وسئل أيضاً في أي شيء يكون العلم والكرم والشجاعة فقال زينة العلم الصدق وزينة الكرم البشر وزينة الشجاعة العفو عند القدرة .

حكمة : قال يونان الوزير أربعة أشياء من عظيم البلاء : كثرة العيال مع قلة المال والجار المسيء الجوار ، والمرأة التي لا تقية لها ولا وقار .

واتفق أهل الدنيا على أن أعمال الخلائق كلها خمسة وعشرون وجهاً : خمسة منها بالقضاء والقدر وهي طلب الزوجة ، والولد ، والمال ، والملك ، والحياة . وخمسة منها بالكسب والاجتهاد وهي العلم ، والكتابة ، والفروسية ودخول الجنة ، والنجاة من النار . وخمسة منها بالطبع وهي الوفاء ، والمداراة والتواضع والسخاء . وخمسة منها بالعادة وهي المشي في الطريق ، والأكل والنوم والجماع والبول والتغوط . وخمسة منها بالإرث وهي الجمال ، وطيب الخلق وعلو الهمة ، والتكبر ، والدناءة .

حكمة : ستة أشياء تساوي الدنيا : الطعام السائغ ، والولد السليم الأعضاء والصاحب الموافق ، والأمير المشفق ، والكلام الصحيح النظام ، والعقل التام .

حكمة : قال الحكيم خمسة أشياء ضائعة : السراج في الشمس ، والمطر في السباخ المالحة ، والمرأة الحسناء عند الأعمى ، والطعام الطيب يقدم بين يدي الشبعان ، وكلام اللّه سبحانه في صدر الظالم .

حكمة : سئل الاسكندر لم تكرم معلمك فوق كرامة أبيك فقال ان أبي سبب حياتي الفانية ومعلمي سبب حياتي الباقية .

حكمة : قال الحكيم إذا كانت بقسمة اللّه تجري الأمور ، فالاجتهاد محظور ، وتاركه مشكور . وقال إذا لم يمش معك الزمان كما تريد ، فامش مع الزمان كما يريد ، فإن الإنسان عبد الزمان ، والزمان عدو الإنسان ، وكل نفس تنفسه فبقدره يبعد عن الحياة ويقرب من الممات .

حكمة : سأل قوم من الحكماء بزر جمهر فقالوا عرفنا من أبواب الحكمة ما ينفع أرواحنا وأشباحنا لنجتهد فيه وما يضرنا للبعد عنه فقال اعلموا وتيقنوا أن أربعة من الأشياء تزيد في نور العين وتحد النظر . وأربعة

تنقص نورها وأربعة تسمن الجسم وتخصبه ، وأربعة تضعفه وتهزله ، وأربعة أشياء تحيي القلب ، وأربعة تميته ، وأربعة يصح بها الحسم دائماً ، وأربعة تكسر البدن. أما الأربعة التي تزيد في نور العين فهي الخضرة ، والماء الجاري ، والشراب الصافي والنظر الى وجوه الأحباب . وأما الأربعة التي تنقصه فهي أكل المالح واللحم القديد ، وصب الماء على الرأس ، والنظر الدائم في عين الشمس ، ورؤية العدو . وأما الأربعة التي تسمن الجسم وتخصبه فهي الثوب الناعم ، وخلو البال من الأحزان ، والرائحة الزكية ، والنوم في المكان الساخن . وأما الأربعة التي تضعفه وتهزله فأكل اللحم القديد ، وكثرة الجماع ، وطول المكث في الحمام ، ونوم العشايا . وأما الأربعة التي يصح بها الجسم فأكل الطعام في وقته ، وحفظ مقادير الأشياء ومجانبه الأعمال الشاقة ، وترك الحزن على غير موجب . وأما الأربعة التي تكسر البدن دائماً فسلوك الطريق الصعب ، وركوب الفرس الحرون ، والمشي على التعب ، ومجامعة العجائز ، وأما الأربعة التي تحيي القلب فالعقل النافع ، والأستاذ العالم والشريك الأمين والزوجة الموافقة ، والصديق المساعد . وأما الأربعة التي تميته فبرد الزمهرير وحر السموم والدخان الكّريه ومخافة العدو .

وقال سقراط الحكيم خمسة أشياء يهلك الإنسان فيها نفسه : خديعة الاصدقاء ، والالتفات عن العلماء ، واحتقار الرجل نفسه ، وتكبر من لا يسوى واتباع الهوى .

حكمة : قال سقراط خمسة أشياء لا يشبع منها خمس : عين من نظر، وأنثى من ذكر ، وأذن من خبر ، ونار من حطب ، وعالم من علم .

حكمة : سئل حكيم ما أمر الأشياء في الدنيا وما أحلاها فقال أمر الأشياء استماع الكلام الخشن ممن لا قيمة له والدين الفادح وضائقة اليد وأحلى الأشياء الولد والكلام الطبب واليسار .

حكمة : سئل حكيم ما الموت وما النوم فقال النوم موت خفيف والموت نوم ثقيل .

حكمة : سئل حكيم ما الغنى فقال القناعة والرضا فقيل ما العشق فقال مرض الروح وموت في حسرة .

حكمة : سئل ارسطاطاليس أي صديق أوثق وأي صاحب أشفق فقال الصديق الأصيل أوثق والصاحب القديم أشفق وتدبير العقلاء أفضل .

حكمة : قال جالينوس سبعة أشياء تجلب النسيان : استماع الكلام الخشن ولا يتصوره القلب ، والحجامة على خرزة العنق ، والبول في الماء الراكد وأكل الحوامض ، والنظر في وجه الميت ، والنوم الكثير ، والنظر في الأماكن الخراب . وقال أيضاً في كتاب الأدوية أن النسيان يحدث من سبعة أشياء وهي البلغم ، وضحك القهقهة ، وأكل المالح واللحم السمين وكثرة الجماع ، والسهر مع التعب ، وسائر البرودات والرطوبات فإن أكلها يضر ويجلب النسيان .

حكمة : قال أبو القاسم الحكيم فتن الدنيا تنشأ من ثلاثة نفر من قائل الأخبار ، وطالب استماع الأخبار ومتلقي الأخبار وهؤلاء الثلاثة لا يخلصون من الندامة .

حكمة : قيل ثلاثة أشياء لا تجتمع مع ثلاثة أكل الحلال مع اتباع الشهوات والشفقة مع ارتكاب الغضب وصدق المقال مع كثرة الكلام .

حكمة : قال بزر جمهر الحكيم إن شئت إن تصير من جملة الابدال فحول أخلاقك الى أخلاق الصبيان الأطفال . فقيل كيف ذلك فقال في الأطفال خمس خصال لو كانت في الكبار لكانوا أبدالاً وهي أنهم لا يغتمون للرزق ، وإذا مرضوا لم يشكوا من خالقهم تعالى ، وانهم يأكلون الطعام فيجتمعون ، وإذا تخاصموا لم يتحاقدوا ويسارعون الى الصلح ، وانهم يخوفون فيخافون بأدنى تخويف وتدمع أعينهم .

حكمة : قال وهب بن منبه في التوراة أربع كلمات مكتوبة وهي كل

عالم لم يكن متورعاً فهو كاللص وكل رجل خلا عن العقل فهو والبهيمة على مثال واحد .

حكمة : قال بعض الحكماء أصل الزعامة العطف وأصل الذنب العجلة ، وأصل الذل البخل .

حكمة : قال الحكيم ينبغي أن لا يكون الانسان لقلبه خادماً وبقلبه متقدماً وبعادته أبله أي يتجاوز عن الجيد والرديء وينبغي أن يسمع كلام الحكمة من غير حكيم فإنه قد يصيب الغرض من لم يكن رامياً .

حكمة : قال الاحنف بن قيس لا صديق لملول ، ولا وفاء لكذوب ولا راحة لحسود ، ولا مروءة لدنيء ولا زعامة لسيء الخلق .

حكمة : قال ذو الرياستين اشتكى رجل من خصم له الى الاسكندر فقال له الاسكندر أتحب أن أسمع كلامك فيه بشرط أن أسمع كلامه فيك فخاف الرجل وأمسك فقال الاسكندر كفوا أنفسكم عن الناس لتأمنوا من أناس السوء .

حكمة : قال بزر جمهر العوافي أربعة وهي عافية الدين ، وعافية المال وعافية الجسم وعافية الأهل. فأما عافية الدين ففي ثلاثة أشياء: أن لا تتابع الهوى وأن تعمل بأوامر الشرع وأن لا تحسد أحداً . وعافية المال في ثلاثة أشياء : انعام النظر ، وأداء الأمانة واخراج الحق من المال . وعافية الجسم في ثلاثة أشياء قلة الأكل ، والاقلال من الكلام ، والاقلال من النوم . وعافية الأهل في ثلاثة القناعة ، وحسن العشرة ، وحفظ طاعة اللّه تعالى .

وسئل حاتم الأصم لأي شيء لا نجد ما وجده المتقدمون فقال: لأنكم فاتكم خمسة أشياء: المعلم الناصح ، والصاحب الموافق، والجهد الدائم والكسب الحلال والزمان المساعد .

خبر : جاء في الخبر ان رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم قال يا علي أقبل علي بوجهك واخل إلي قلبك وسمعك ، كل وغط ، واجمع وهب وتشدد فقال علي ما معنى هذه الكلمات يا رسول اللّه فقال كل الغضب وغط

عيب أخيك وهب ظلم الظالم وأجمع لذلك القبر المظلم وتشدد في دين الإسلام .

حكمة : قال رجل لبعض الحكماء أوصني فقال لا تنظر قضاه واطلب رضاه وتجنب جفاه .

حكمة : سئل حكيم أي شيء أكثر بين الخلق فقال: كثرة التدبير وليس قدرة ومع الاستكثار لا تزول الحاجة والعبد يحرص على كل شيء الا على الفقر فليس يحرص عليه أحد لأن الخلق كلهم يطلبون الغنى ولا يحرص أحد على الغم لأن الكل يطلبون السرور ويحرصون على الفرح ولا يحرص أحد على الموت لانهم يحرصون على الحياة .

حكمة : قال أبو القاسم الحكيم هلاك العبد في شيئين المعصية والانفراد بالرأي .

حكمة : قال الحكيم بلاء الخلق من ثلاثة: العلماء المضلين، والقراء ه ، والعوام الحسدة . وقيل لا تطلب صحبة من طامع ، ولا تطلب وفاء من خسيس الأصل . وقال الحكيم شيئان غريبان في هذا الزمان الدين والفقر .

حكمة : قال الحكيم أربعة أحوال ان حفظتها كنت من جملة الرجال : أحدها سرك يجب أن يكون بحيث إذا علمه الناس رضيت والثاني علانيتك يجب أن تكون بحيث لو اقتدى بك الناس جاز لك . والثالث أن تعامل الناس بما لو عاملوك به اخترته لنفسك . والرابع أن تكون حالتك للناس بحيث لو كانت لك رضيت بها .

حكمة : قال الحكيم ينبغي أن تنظر ثلاثة أشياء بعين ثلاثة وهي أن تنظر الفقراء بعين التواضع لا بعين التكبر وأن تنظر الأغنياء بعين النصح لا بعين الحسد . وأن تنظر النساء بعين الشفقة لا بعين الشهوة .

حكمة : قال وهب بن منبه: في التوراة مكتوب أن أم المعاصي ثلاثة الكبر والحرص والحسد وانها نتيجة خمسة أشياء الأكل والنوم وراحة الجسم وحب الدنيا ومدح الناس .

وقال من خلص من ثلاثة أشياء فمأواه الجنة وهي المنة والمؤونة والملامة إذا أحسن لم يمن باحسانه، وأن يخفف مؤونته عن الناس وإذا رأى في أحد عيباً لم يلمه .

حكمة : يقال ان ابن القرية دخل على الحجاج وكان من أكابر أهل زمانه فطنة وعلماً فسأله الحجاج وقال له ما الكفر قال البطر بالنعمة ، والاياس من الرحمة . فقال ما الرضى قال الثقة بقضاء اللّه والصبر على المكاره فقال ما الحلم قال اظهار الرحمة عند القدرة والرضى عند الغضب . ففال ما الصبر قال كظم الغيظ والاحتمال لما يراد . فقال ما الكرم قال حفظ الصديق وقضاء الحقوق . قال ما القناعة قال الصبر على الجوع والعري عن اللباس . قال ما الغنى قال استعظام الصغير واستكثار القليل . فقال ما الرفق قال اصابة الأشياء الكبيرة بالآلة الصغيرة الحقيرة . فقال ما الحمية قال الوقوف على رأس من هو دونك . قال ما الشجاعة قال الحملة في وجوه الاعداء والكفار ، والثبات في موضع الفرار . فقال ما العقل قال صدق المقال وارضاء الرجال فقال ما العدل قال ترك المراد وصحة السيرة والاعتقاد . فقال ما الانصاف قال المساواة عند الدعاوى بين الناس . فقال ما الذل قال المرض من خلو اليد والانكسار من قلة الرزق . فقال ما الحرص قال حدة الشهوة عند الرجال. فقال ما الأمانة قال قضاء الواجب. فقال: ما الخيانة قال التراخي مع القدرة قال فما الفهم قال التفكر وإدراك الأشياء على حقائقها .

حكمة : قال الحكيم ثمانية تجلب الذل على أصحابها وهي جلوس الرجل على مائدة لم يدع اليها ، ومن تأمر على صاحب البيت والطامع في الاحسان من اعدائه ، والمصغي الى حديث اثنين لم يدخلاه بينهما ، ومحتقر السلطان ، ومن جلس فوق مرتبته ومن تكلم عند من لا يستمع ومن صادق من ليس بأهل .

حكمة : سئل بزر جمهر أي شيء يقبح بالانسان ذكره وإن كان صحيحاً قال مدح الإنسان نفسه لأنك لا تجد بخيلاً ممدوحاً ، ولا ذا غضب

مسروراً ، ولا عاقلاً حريصاً ، ولا ترى كريماً حاسداً ، ولا قنوطاً عتياً ، ولا تجد لملول صديقاً .

حكمة : قال الحكيم خمسة يفرحون بخمس ثم يندمون بعدها الكسلان إذا فاتته الأمور والمنقطع عن اخوانه إذا نالته شدة ، ومن أمكنته فرصة على اعدائه ثم عجز عن انتهازها ، ومن ابتلى بامرأة سوء وتذكر المرأة الصالحة قبلها ، والرجل الصالح يندم على ارتكاب الذنوب .

حكمة : سئل بزر جمهر هل يقلب المال قلوب العلماء من الرجال فقال من قلب المال قلبه فليس بعالم .

حكمة : قال الحكيم العتاب الظاهر خير من الحقد الباطن .

حكمة : قال بزر جمهر أصحاب الغم والحزن في الدنيا ثلاثة : محب فارق حبيبه ، ووالد شفوق ضل عنه ولده ، وغني عاد فقيراً

حكمة : قال الحكيم خمسة يكون المال اعز من انفسهم وأرواحهم عليهم وهم المقاتل بالاجرة وحفار الآبار والقنوات ، وراكب البحر للتجارة والحواء الذي يتصيد الحيات ، وآكل السم بالمراهنة .

حكمة : قال عمرو بن معدي كرب الكلام اللين يلين القلوب التي هي أقسى من الصخر ، والكلام الخشن يخشن القلوب التي هي أنعم من الحرير .

حكمة : قال الحكيم الحزن مرض الروح كما أن الوجع مرض الجسد والفرح غذاء الروح كما أن الطعام غذاء الجسد . وطلب حكيم من رجل أن يدينه ديناراً فلم يفعل فقال الحكيم لم يكن من معك إياي الا أن احمر وجهي من الحياء مرة واحدة ولو أعطيتني لم يصفر وجهي من مطالبتك مرة بل ألف مرة .

حكمة : قال الحكيم من يزرع وطينه رطب لم يساو قيمته شيئاً . وقال من ليس له لب ولا خطر فهو شجر بلا ثمر . وقال من سل سيف الجور قتل

به ، ومن لم ينصف من نفسه لم يخلص من حسرته ، ومن أطلق يده بالعطاء أشـرق وجهـه بـالضيـاء . وقـال من لم يجتـرز من ذنبـه فقـد تعلق بـه . وقـال الشباب رضيع الجنون ، والشيب قرين التوفيق والسكون . وقـال تزود طـاهر الزاد ، ولا تخف من الاضداد .

عظة : قال لقمان كنت أسير في طريق فرأيت رجـلاً عليه مسح فقلت ما انت أيها الرجل فقـال آدمي فقلت ما اسمـك فقال حتى انـظر بماذا اسمى فقلت ماذا تصنع قال ترك الأذى فقلت ماذا تأكل قال الـذي يطعمني ويسقيني فقلت من أين يطعمك فقال من حيث شاء فقلت طوبى لك وقرة عين فقال ما الذي يمنعك عن هذه الطوبى وقرة العين .

حكمة : قيل ثلاثة تذهب عن القلب العمى : صحبة العـالم ، وقضاء الدين، ومشاهدة الحبيب. وقيل شيئان يجلبان الحزن الى القلب: الطمع في جود البخلاء ، والمراء مع الوضعاء .

حكمة : قال الحكيم تجنب أربعة أشياء تخلص من أربعة أشياء : تجنب الحســد لتخلص من الحـزن ولا تجــالس جليس الهـوء وقــد تخلصت من الملامة ولا ترتكب المعاصي وقـد خلصت من النار ، ولا تجمـع المال وقـد خلصت من العداوة .

حكمة : قال الحكيم أربعة أعمال مذمومة يعملها النـاس فيجازون بهـا في الـدنيا والآخـرة . الغيبة فقـد قيل فـارس يلحق سريعـاً ، والثاني احتقـار العلماء لأن من احتقر عالماً عاد حقيراً ، والثالث كفران نعم اللّه عـز وجل ، والرابع قتل النفس بغير حق ، وللأكابر والحكماء مثل قديم كـل قاتـل مقتول ولو بعد حين . قال الشاعر :

إذا مكنـت بـالسكيـن كفـاً	لقتـل الناس فـاذكـر السبيـلا
رأى عيسى قتيــلاً في طـريق	فعض على أنــامله طــويــلاً
وقــال لمن قتلت نـراك حتى	غـدوت كما أرى ملقى قتيـلاً
وقـاتلك الـذي أرداك أيضـاً	يـذوق القتل فليـطل العويـلا

الباب السادس

في شرف العقل والعقلاء

إن اللّه سبحانه وتعالى خلق العقل على أحسن صورة وقال له أقبل فاقبل ثم قال له أدبر فأدبر فقال وعزتي وجلالي ما خلقت في خلقي شيئاً أحسن منك بك آخذ وبك أعطي وبك أحاسب وبك أعاقب . والدليل على صحة هذا أن لله تعالى على العباد شيئين وكلاهما موقوفان على العقل وهما الأمر والنهي كما جاء في محكم التنزيل قوله جل ذكره : ﴿ **فاتقوا اللّه يا أولي الألباب** ﴾[1]. هم ذوو العقول ، واشتقاق العقل من العقال ، والمعقل المنيع القلعة على رأس الجبل لا يصل إليها يد أحد لامتناعها وقوتها واحكامها .

سئل حكيم الفرس لم سمي العاقل عاقلاً فقال للعاقل أربع علامات يعرف بها . وهي أن يتجاوز عن ذنب من ظلمه ، وان يتواضع لمن دونه ، وان يسابق الى فعل الخير لمن هو أعلى منه ، وان يذكر ربه دائماً وان يتكلم عن العلم ويعرف منفعة الكلام في موضعه وإذا وقع في شدة التجأ الى اللّه تعالى . وكذلك الجاهل له علامات وهو أن يجور على الناس ويظلمهم ويعسف بمن دونه وأن يتكبر على الزعماء والمتقدمين وأن يتكلم بغير علم ، وأن يسكت عن خطأ وإذا وقع في شدة أهلك نفسه وإذا رأى أعمال الخير لفت عنها وجهه .

---

(١) سورة المائدة ، الآية ١٠٠ .

حكمة : قال سعيد بن جبر : ما رأيت للإنسان لباساً أشرف من العقل إن انكسر صححه ، وان وقع أقامه وان ذل أعزه وإن سقط في هوة جذبه بضبعه منها واستنقذه مهها وان افتقر أغناه وأول شيء يحتاج إليه البليغ العلم الممتزج بالعقل كما جاء في الحكاية .

حكاية : يقال انه ما كان في خلفاء بني العباس اعلم من المأمون في جميع العلوم فكان له في كل أسبوع يومان يجلس فيهما لمناظرة الفقهاء وكان يجتمع عنده الفقهاء والمناظرون ، والعلماء والمتكلمون ، فدخل في بعض الأيام الى مجلسه رجل غريب عليه ثياب بياض رتة فجلس في أواخر الناس وقعد من وراء الفقهاء في مكان مجهول فلما ابتدأوا في المسائل وكان رسمهم يديرون المسألة على جماعة أهل المجلس فكل من وجد زيادة لطيفة أو نكتة غريبة ذكرها فدارت المسألة الى أن وصلت الى ذلك الرجل الغريب فتكلم بكلام عجيب فاستحسنه المأمون فأمر أن يرفع الى أعلى من ذلك الموضع فلما دارت المسألة التانية أجاب بجواب أحسن من أجوبة الفقهاء كلهم فأمر أن يرفع الى أعلى من تلك المرتبة . فلما وصلت الثالثة أجاب بجواب أحسن وأصوب من الجوابين الأولين فأمر المأمون أن يجلس قريباً منه فلما انقضت المناظرة أحضر الماء وغسلوا أيديهم ثم أحضر الطعام.فأكلوا ثم نهض الفقهاء وخرجوا وقرب المأمون ذلك الرجل وأدناه وطيب قلبه ووعده بالاحسان إليه والإنعام عليه . ثم عبي مجلس الشراب ونضد وحضر الندماء الملاح ، ودات الراح . فلما وصل الدور الى الرجل نهض قائماً وقال ان أذن أمير المؤمنين تكلمت بكلمة واحدة فقال قل ما تشاء فقال قد علم الرأي العالي زاده الله علواً ان العبد كان في المجلس الشريف من مجاهيل الناس ووضعاء الجلاس ، وان أمير المؤمنين بقدر يسير من العقل الذي أبداه جعله مرفوعاً على درجة غيره وبلغ به الغاية التي لم تسم اليها همته وإن العبد إذا شرب الشراب تباعد عنه العقل وقرب منه الجهل وسلب أدبه فعاد الى تلك الدرجة ووقع في أعين الناس كما كان ذليلاً فإن رأى الرأي العالي آن لا يفرق بينه وبين ذلك القدر اليسير من العقل الدي أعزه بعد الذلة وكثره بعد

القلة بمنه وفضله وكرمه ، وسيادته وحسن شيمه ، فعل متطولاً ، وأنعم متفضلاً . فلما سمع المأمون منه ذلك مدحه وشكره وأجلسه في رتبته ووقره وأمر له بمائة ألف درهم وحمله على فرس وأعطاه ثياب تجمل وكان كل مجلس يرفعه على جماعة الفقهاء حتى صار أرفع منهم درجة ، وأعلى منزلة . وإنما أوردنا هذه الحكاية لأجل نعت العقل لأن العقل يوصل صاحبه الى درجة عالية ، ومرتبة سامية ، وان الجهل يحط صاحبه عن درجته ويهبط به من علو مكانته .

حكاية : يقال أنه جاء في بعض الأيام رجل الى باب الخليفة المنصور فقال أيها الحاجب أعلم أمير المؤمنين أن بالباب رجلاً من أهل العلم واسمه عاصم وهو يذكر أنه كان في الزمن الماضي بينه وبين أمير المؤمنين صحبة مدة سنة وأكثر بالشام في التعليم والدرس وقد وصل الآن للسلام ، ولتجديد العهد بالامام . فلما عرفه الحاجب أذن له فلما دخل وسلم عليه ثقل قدومه ووصوله على قلب أبي الدوانيق لغثاثة منطقه وسوء أدبه فأجلسه وسأله وقال له في أي حاجة قدمت فقال لرؤية أمير المؤمنين بوسيلة تلك الصحبة القديمة فأمر له بألف درهم فأخذها الرجل وانصرف ثم عاد بعد سنة أخرى وكان قد مات للمنصور ولد وهو جالس في العزاء فدخل الرجل وسلم عليه ودعا له فقال فيم قدمت قال أنا ذلك الرجل الذي كنت معك في الشام وقد قدمت معزياً برزيتك ، ومؤدياً حق تعزيتك ، فأمر له بخمسمائة درهم فأخذها ثم عاد بعد سنة أخرى فلم يجد حجة يحتج بها في الدحول إلا أنه دخل في جملة الناس وسلم فقال له الخليفة لأي سبب وصلت فقال أنا ذلك الرجل الذي كنت معك في الشام في التعليم والدرس وكتابة الأخبار واستماع الأحاديث وكنت قد كتبت معك دعاء الحاجة وان كل من دعا به في حاجة قضى اللّه حاجته وقد ضاع مني ذلك الدعاء وقد أتيت أمير المؤمنين لأكتب نسخة ذلك الدعاء فقال له المنصور لا تتعب في طلب دلك الدعاء فانه غير مستجاب وانني قد دعوت به مذ ثلاث سنين ليخلصني اللّه من صداعك فلم أخلص ولو كان مستجاباً لتخلصت منك فخجل ذلك الرجل لما سمع هذا

الكلام . وإنما أوردنا هذه الحكاية لأن الإنسان إذا كان عالماً ولم يكن له عقل سقط جاهه ومرتبته .

حكاية : كان في ذلك العصر وصل رجل من مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم الى المنصور بحكم الصداقة التي كانت بينهما قديماً فلما صار خليفة الزمان قدم عليه ، ووفد إليه ، وكان الرجل عاقلاً لبيباً ولم يكن عالماً . فلما رآه المنصور قربه وأدناه ، وأرلفه واستدعاه . فقال له الرجل يا أمير المؤمنين أنا محب لك شديد المحبة والولاء مخلص في الطاعة والدعاء غير انني لا أصلح لخدمة الملوك فكيف ينبغي أن أزورك بحيث لا يظهر مني سوء أدب فقال المنصور أخر الزيارة وإذا زرتني فاجعل بين زيارتك وانقطاعك مدة إذا غبت فيها لم أنسك وإذا حضرت لم أملك وازدادت محبتك عندي عما كانت عليه أولاً . وإذا دخلت فاجلس بعيداً مني حتى يقربك الحاجب بالتدريج ولا تطل جلوسك فتنسب الى سوء الأدب ولا تسأل حاجتك لئلا تثقل على قلبي ، وإذا أحسنت اليك فاشكرني في كل محلة تحلها ومنزلة تنزل بحيث اذا بلغني سررت بشكرك ، وازددت في برك ، ولا تذكر في المجالس ما جرى بيني وبينك في الزمان الماضي . فامتثل الرجل هذه الوصايا فكان في كل سنة يمضي الى سلامه مرتين وكان المنصور يعطيه في كل مرة يسلم عليه ألف درهم . وانما ذكرت هذه الحكاية ليعلم أن من كان له عقل وان لم يكن عالماً فان عقله يكون له دليلاً ، ومن كان ذا علم وليس له عقل عادت أموره كلها منعكسة منقلبة ، ومن كان تام العقل والعلم كان في الدنيا نبياً أو حكيماً أو إماماً فان جمال الانسان وعزه ومرتبته وصلاح أحوال دنياه وآخرته بالعقل وتمامه ، فتتكامل صفاته وأقسامه كما قال الشاعر :

بالعقل ينال المرء أوج البدر والعقل به الجاه وسامي القدر
والعقل به يغسل عار الوزر في العقل التاج مع نفاذ الأمر

والعقل أول الإيمان ووسط الإيمان وآخر الإيمان . قال بعض القدماء ليس العقل أن الإنسان أذا وقع في أمر اجتهد في حسن خلاصه منه بل العقل

أن لا يوقع نفسه في أمر يحتاج الى الخلاص منه .

حكمة : قال ابروير الملك لولده احفظ الرعية ليحفظك العقل واصرف آفتك عن الرعية ليصرف العقل آفته عنك . واعلم انك حكم بين الناس والعقل حكم جليل فكما ينبغي أن يقبل الناس أمرك فكذلك ينبغي أن تقبل أمر العقل .

حكمة : كتب يونان الوزير كتاباً الى الملك العادل كسرى أنو شروان وأدى رسائل في باب العقل وما يأمر به العقل فشكره أنو شروان وأمر الكاتب أن يكتب اليه جواباً وقال أيها الحكيم لقد أحسنت في تأدية رسالة العقل لأننا ومن تقدمنا من الملوك إنما تحلينا بالعقل فكيف يمكننا مخالفته فان العاقل أقرب الناس الى اللّه تعالى والعقل كالشمس في الدنيا وهو قلب الحسنات والعقل حسن في كل واحد وهو في الأكابر والزعماء أحسن كالرطوبة في الشجرة مادامت طرية رطبة كان الناس من رائحتها ونشر أزهارها وطيب ثمارها ونضارتها وطراوتها في سرور وغبطة ونزهة وفرحة فاذا جفت رطوبتها وقحلت نضارتها فلا تصلح حينئذ لسوى القلع وكذلك الإنسان مادام عقله قويماً ، وجسمه سليماً ، صحبته مباركة ومواصلته حسنة نافعة فاذا زال عقله ، وغلب عليه جهله . فحينئذ لا يصلح للحياة ، ولا يستره غير الوفاة .

وقال أنو شروان كيف يسعني أن أخالف العقل ولا أفعل ما يأمرني به العقل وأنه ليس لملك ولا رعية خير من العقل فان بضيائه يفرق بين المليح والقبيح والجيد والرديء والحق والباطل والصدق والكذب . قال بزرجمهر شيئان لا يمكن وجودهما في شخص كاملين العقل والشجاعة .

حكمة : قال لقمان الحكيم مهما كان الرجل عالماً فانه لا ينتفع بعلمه ما لم يكن العقل لعلمه مصاحباً .

حكمة : سأل أنو شروان بزر جمهر من تحب أن يكون أعقل الناس فقال العدو إذا عاداني فقال ولم؟ قال لآمن اساءته وكل شيء إذا كثر هان إلا العقل فإنه كلما كان أكثر كان صاحبه أعز .

حكمة : قيل لبزر جمهر أي شيء لا بد للإنسان منه ولا مندوحة له عنه فقال العقل فقيل له ما قدر العقل فقال شيء لا يوجد في الإنسان كاملاً كيف يعرف قدره

حكمة : قال بعض الحكماء جميع الأشياء مفتقرة الى العقل والعقل مفتقر الى التجربة ولا غنى أعم من العقل ولا فقر أشد من الجهل وكل من كان علمه أكثر كانت حاجته الى العقل أوفر ، والمرء في هذا كراع ضعيف معه قطيع كبير يضرب للعالم الذي لا عقل له .

حكمة : قالت العلماء العقل أمير وله جنود وجنوده التمييز والحفظ والفهم . وسرور الروح العقل لأن به ثبات الجسم والروح سراج نوره العقل ثم ينبسط في جميع الجسد والعاقل لا يغتم أبداً لأنه لا يفعل ما يوجب الاغتمام ولا يشرع في أمر لا يجوز لمثله الاهتمام به .

حكمة : سئل ابن عباس العقل أم الأدب؟ فقال العقل لأن العقل من اللّه تعالى والأدب تكليف من العبد . وسئل عبد اللّه بن المبارك العقل خير أم الأدب فقال العقل فقيل له ما العقل فقال العقل تعلم العلم والعمل بالعلم أن تعلم أنه ينبغي أن تعمل والعقل أنك متى علمت عملت .

وقال النبي صلى اللّه عليه وسلم : ما قسم اللّه لعباده خيراً من العقل ونوم العاقل خير من عبادة الجاهل والعاقل المفطر خير من الجاهل الصائم ، وضحك العاقل خير من بكاء الجاهل .

حكمة : قال رجل لأقليدس لا أستريح أو أتلف روحك فقال أنا لا أستريح أو أخرج الحقد من قلبك .

حكمة : قال الحكيم كما تفوح من الميتة الرائحة المكروهة يفوح من الجاهل نتونة الجهل فتضرّ به وبجيرانه وأقاربه .

حكمة : سئل الحكيم ما العقل فقال سداد وعقد بين ثلاثة وعشرين شيئاً فلولا هذه العقود لاختلط الجيد بالرديء . أولاً هو عقد بين التوحيد

والشـــرك ، وبين الايمـان والكفـــر ، وبين الجـد والتهـــور ، وبين الإسـلام والغفلة ، وبين اليقين والشـك وبين العافيـة والبلاء ، وبين الكـرم والبخل ، وبين حسن الخلق والقباحة وبين التواضع والتكبر ، وبين الصداقة والعداوة ، وبين العلم والجهـل ، وبين الحياء والـوقـاحـة ، وبين الحق والباطـل، وبين الرزانة والخفة ، وبين الظلمة والضياء ، وبين الكرامة والـزلة ، وبين الـطاعة والمعصيـة ، وبين ذكر اللّه تعـالى والغفلة ، وبين النصيحة والحسـد ، وبين السنة والبدعة ، وبين الرحمة والقساوة ، وبين الحلم والحمق .

وقال صاحب الكتاب رحمه اللّه تعالى جميع محاسن الدنيا في العقل وسائر العلوم والأعمال مرجعها الى العقل كما جاء في الحكاية .

حكاية : روي أن الريح حملت كـرسي سليمان بن داود عليهما السلام وجعلت تسير به فلاح لسليمان بلد فأمر الريح أن تحطه فنزل على بـاب ذلك البلد فرأى على بابه مكتوباً: أجرة اجتهاد يوم واحد درهم، والحسن والجمال أجـرتهما في يـوم مائتـا مثقال وعلم سـاعـة واحـدة لا تحصى قيمتـه وجميـع الأشيـاء منوط بـالعلم والعلم أسير والتـدبير مـع العقل تـوأمان ومن آتـاه اللّه العقل فقد آتاه خيراً كثيراً كما قال الشاعر :

إن كنت من أصـل جـوهـر منسـوب أو يـوسف الحسن ولـد يعقــوب
مـا أنت مجـالس بعقلك المحبـوب في النـــاس سـوى محقــر معيـوب

لتعلم أيها الأخ كنه العقل ونفاستـه وعلو قيمته فيجب عليـك أيها العـاقل الحمد والشكر لواهب الشكر الباري جلت قدرته .

الباب السابع

في ذكر النساء

خير النساء وأبركهن الحسناء الولود الخفيفة المهر . قال عليه الصلاة والسلام عليكم بالمرأة الحرة فإنها أطهر وأبرك . وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه التجئوا الى الله عر وجل من شرار النساء واحذروا حيارهن . قال صاحب الكتاب من أراد صلاحه وتدبيره ولم يجد المرأة الحسناء يلهو بها فعليه بالمرأة الدينة فذات الدين خير وأسرك وإدا جاءت الديانة أتى المال وكان أبرك لأن المرأة التي لا دين لها فما لها أصل ولا معها بركة وببركة الديانة يوجد كل خير كما في الحكاية .

حكاية : كان بمدينة مرو رجل اسمه نوح بن مريم وكان رئيس مرو وقاصيها وكان له بعمة كبيرة وحال موفورة وكانت له ابنة ذات حسن وجمال وبهاء وكمال ، قد خطبها جماعة من الأكابر والرؤساء وذوي النعمة والثروة فلم ينعم بها لأحد منهم وتحير في أمرها ولم يدر لأيهم يزوجها وقال ان زوجتها لفلان أسخطت فلاناً وكان له غلام هندي تقي اسمه مبارك وكان له كرم عامر الأشجار والفاكهة والثمار . فقال للغلام أريد أن تمضي وتحفظ الكرم فمضى الغلام وأقام في الكرم شهراً فجاء سيده في بعض الأيام الى الكرم لينظره فقال له يا مبارك ناولني عنقود عنب فناوله عنقوداً من العنب فوجده حامضاً فقال له سيده أعطني غير هذا فناوله عنقوداً فوجده حامضاً فقال له سيده ما السبب في أنك لا تناولني من هذا الكثير غير الحامض فقال لأني

لا أعلم أحامض هو أم حلو فقال له سيده سبحان اللّه لك في هذا الكرم شهر كامل ما تعرف الحامض من الحلو فقال وحقك أيها السيد انني ما ذقته ولم أعلم أحامض أم حلو فقال له لم لا أكلت منه فقال لأنك أمرتني بحفظه ولم تأمرني بأكله فما كنت أخونك فعجب القاضي منه فقال له حفظ اللّه عليك أمانتك وعلم القاضي أن الغلام غزير العقل فقال له القاضي أيها الغلام قد وقع لي رغبة فيك وينبغي أن تفعل ما آمرك به فقال العلام أنا مطيع للّه ولك فقال القاصي : إعلم أن لي بنتاً جميلة وقد خطبها كثير من الرؤساء والمتقدمين ولا أعلم لمن أزوجها فأشر علي بما ترى فقال الغلام : إن الكفار في زمن الجاهلية كانوا يريدون الأصل والنسب والبيت والحسب واليهود والنصارى يطلبون الحسن والجمال وفي عهد رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم كان الناس يطلبون الدين والتقى . أما وفي زماننا هذا فالناس يطلبون المال فاختر من هذه الأربعة ما تريد فقال القاضي قد اخترت الدين والتقى والأمانة أريد أن أزوجك ابنتي لأني قد وجدت فيك الصلاح والديانة والأمانة ، وجربت منك العفة والصيانة . فقال الغلام أيها السيد أنا عبد رقيق هندي أسود ابتعتني بمالك كيف تزوجني بإبنتك وكيف تختاربي ابنتك وترضاني فقال له القاضي قم بنا إلى البيت لندبر هذا الأمر فلما صارا الى المنزل قال القاضي لزوجته اعلمي أن هذا الغلام الهندي دين تقي وقد رغبت في صلاحه وأريد أن أزوجه ابنتي فما تقولين فقالت الأمر إليك ولكن أمضي الى الصبية وأخبرها وأعيد عليك جوابها فجاءت المرأة الى الصبية وأدت إليها رسالة أبيها فقالت مهما أمرتماني به فعلته ولا أخرج من تحت حكمكما ولا أعاندكما بالمخالفة بل أبركما فزوج القاضي ابنته بالمبارك وأعطاهما مالاً عظيماً فأولدها المبارك ولداً وسماه عبد اللّه وهو معروف في جميع العالم وهو عبد اللّه بن المبارك صاحب العلم والزهد ورواية الأحاديث فما دامت الدنيا يحدث عنه ويروى .

نعم أيها الأخ إذا تزوجت فاطلب ذات الدين ولا تطلب ذات الصيت والمال فإن المال يعود وبالاً ولا تعطيكه المرأة وإذا أردت أن

تطلب زوجة فلا تطلبها وتخطبها لأجل بلوغ الشهوة وارغب فيها بنية أنها دينة وصالحة لتكون في خدرك وطاعتك وتكون لك ستراً من النار .

حكاية : نزل بعبد اللّه بن المبارك في بعض الأيام عشرة من العلماء ولم يكن عنده ما يضيفهم به وما كان يملك سوى فرس يحج عليها سنة ويغزو سنة فذبح ذلك الفرس وطبخ منه وقدمه بين يدي أضيافه فقالت له زوجته سبحان اللّه ما كنت تملك سوى هذا الفرس من الدنيا فلم ذبحته فدخل سريعاً الى بيته وأخرج من متاع بيته بقدر مهرها وطلقها في وقته وساعته وقال امرأة تبغض الأضياف لا تصلح لنا فأتاه بعد ذلك بأيام رجل وقال له يا امام المسلمين لي بنت وقد توفيت أمها وهي في كل يوم تمزق دست ثياب حزناً وغماً واليوم تريد أن تقصد مجلسك فقل في تسليتها شيئاً لعل قلبها يرق فلما جلس على المنبر ذكر من هذا الباب ما تسلت به الصبية عن أمها فلما عادت الى البيت قالت يا أبت قد تبت ولا أعود أسخط اللّه تعالى ولكن لي اليك حاجة قال وما حاجتك قالت أنت تقول دائماً أرباب الأحرال وأبناء الدنيا يطلبونك ويخطبونك فناشدتك اللّه لا تزوجني لغير عبد اللّه بن المبارك فإن كان ماله دنيا فإن لنا دنيا فزوجها أبوها بعبد اللّه بن المبارك وحمل اليه جهازاً كثيراً ومالاً كبيراً وأنفذ اليه عشرة أفراس ليجاهد عليها في سبيل اللّه فرأى عبد اللّه في بعض الليالي في منامه قائلاً يقول ان كنت طلقت من أجلنا عجوزاً فقد أعطيناك صبية بكراً وان كنت ذبحت فرساً واحداً فقد أعطيناك عشرة أفراس عوضها لتعلم أن الحسنة بعشر أمثالها عندنا ولا يضيع عندنا أجر المحسنين وما عاملنا أحد فخسر ولا يخسر كما جاء في الحكاية .

حكاية : حكى أبو سعيد أنه كان في بني اسرائيل رجل صالح وله زوجة دينة تقية ذات رأي وحزم فأوحى اللّه تعالى الى نبي ذلك الزمان أن قل لذلك العبد الصالح أني قدرت له أن يمضي نصف عمره بالغنى ونصفه بالفقر فإن اختار أن يكون غناه في شبيبته اغنيناه وإن اختار أن يكون في شيخوخته قدرنا له ذلك فيسرناه له . لما أعلم الرجل ذلك اخبر به زوجته وقال

لهـا قد جـاء خطاب من اللّه تعـالى وقص عليها مـا سمعه وقـال لها مـا ترين فقالت له الاختيار اليك فقال الرجل قد رأيت الفقر في الشبيبة فإذا كنت شابـاً فقيـراً احتملت وصبرت عليـه فإذا صـرت كبيراً غنيـاً كـان لي مـا أتقـوت بـه وأشتغل بطاعة ربي وعبادته فقالت المـرأة أيها الـرجل إذا كنـا في الشبيبة في ضنك ولم نقدر على طـاعة ربنـا تعالى ولـم تصـل أيدينـا الى فعل الخيـرات واعطاء الصدقات فالواجب أن نختار الغنى في زمان الشباب فيكون لنـا شباب وغنى وطاعة فنقدر حينئذ على عبادته باجسامنـا وأموالنـا فقال الـرجل نعم مـا رأيت وكذلك نفعل فنزل الوحي على ذلك النبي عليه السلام فقال قل لـذلك الرجل إذا آثـرت طاعتنـا واستفرغت جهـدك في عبادتنـا واتفقت نيتـك ونيـة زوجتـك على طاعتنـا فقد قضيت وقـدرت أن أقضي جميع عمـرك في الغنى وكن أنت وزوجتك على عبادتي ومهما رزقتكما فتصدقا به على بريتي ليكون لكما حظ الدنيا والآخرة .

قـال صاحب الكتـاب وما أوردنـا هذه الحكـاية إلا لتعلم قـدر الزوجـة الصالحة وما فيها من النعمة من اللّه تعالى .

* * *

فصل

واعلم ان ديانة المرأة وسترها نعمة من نعم الله تعالى على عبده وهيهات أن يقدر على المرأة العفيفة طامع كما جاء في الحكاية .

حكاية : يقال أنه اراد رجل فاسق أن يكابر امرأة عفيفة بالحرام فقال لها امضي وأغلقي أبواب الدار جميعها واحكمي اعلاقها فمضت المرأة ثم عادت فقالت قد أغلقت سائر الأبواب وأوثقت اغلاقها سوى باب واحد فقال أي الأبواب ذلك الباب فقالت تلك الأبواب التي بيننا وبين الخلق قد أغلقتها وقد بقي الباب الذي بيني وبين الخالق جلت عظمته ما قدرت عليه ولا [illegible] سبحانه مفتوح فوقع في نفس هذا الرجل من هذا الكلام الهيبة فأخلص لله التوبة وأقلع عن ذنبه وعاد الى طاعة ربه الأعلى .

حكاية مثلها : يقال أنه كان رجل علوي بسمرقند في بعض الأيام قائماً على باب داره فاجتازت عليه امرأة ذات حسن وجمال وكان الدرب خالياً [illegible] المرأة وجذبها الى داخل الدار وهم أن يفسد معها فقالت له المرأة [illegible] عني [illegible] افعل ما بدا لك فقال اذكري ما [illegible] فقالت إذا أنت وطئتني حراماً وحبلت منك وولدت [illegible] يكون ذلك الولد علوياً أو خبيثاً عامياً فقال إنه يكون علوياً فقالت المرأة [illegible] لم تكن خبيثاً لم تفعل مثل هذا فخجل [illegible] عنها ونذر على نفسه لله نذراً أنه لا يعود ينظر الى امرأة محرمة عليه [illegible] الرجل صاحب [illegible] على حرمه وناسه فإن [illegible] من الدين الى حد [illegible] لا [illegible] للرجل الأجنبي [illegible] دق المرأة الأجنبية بالهاون وإذا دق رجل أجنبي باب [illegible] بسهولة لأن قلوب الرجال تتعلق بأقل الأشياء واكثرها.

وان كان لابد للمرأة أن تجيبه فلتضع أصبعها في فمها ولتجبه ليصير صوتها شبيهاً بصوت العجائز ولا يجوز للنساء أن ينظرن الى الرجال الأجانب ولو كان المنظور أعمى . وجاء في الخبر أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم دخل الى بيت عائشة رضي الله عنها فرأى عبد الله بن أم مكتوم قاعداً النساء[1] فقال يا عائشة لا يحل للمرأة أن تقعد عند غير ذي محرم فقالت يا رسول الله إنه أعمى فقال ان كان لا يراك فانك ترينه .

حكاية : يقال أن الحسن البصري رحمة الله عليه قصد زيارة رابعة العدوية رضي الله عنها في جماعة من أصحابه فلما وصلوا الباب قالوا اتأذنين لنا في الدخول فقالت تمهلوا ساعة وجعلت الكساء بينها وبينهم ستراً وأذنت لهم فدخلوا وسلموا عليها فأجابتهم من وراء الستر فقالوا لم علقت بيننا وبينك ستراً فقالت أمرت بذلك في قوله تعالى : ﴿ فاسألوهن من وراء حجاب ﴾[2] وواجب على الرجل أن لا ينظر الى امرأة أجنبية بحال فإنه قبل أن يجازى به في الآخرة يجازى به في الدنيا كما جاء في الحكاية .

حكاية : كان بمدينة بخارى رجل سقاء يحمل الماء الى دار رجل صائغ مدة ثلاثين سنة وكان لذلك الصائغ زوجة في نهاية الحسن والجمال والظرف والكمال ، معروفة بالديانة ، موصوفة بالستر والصيانة . فجاء السقاء على عادته يوماً وقلب الماء في البات وكانت المرأة قائلة في وسط الدار فدنا منها وأخذ بيدها ولواها وفركها وعصرها ثم مضى وتركها . فلما جاء زوجها من السوق قالت له أريد أن تعرفني أي شيء صنعت اليوم في السوق لم يكن لله تعالى فيه رضا فقال الرجل ما صنعت شيئاً فقالت المرأة ان لم تصدقني وتعرفني فلا أقعد في بيتك ولا تعود تراني ولا أراك فقال اعلمي أن في يومنا هذا اتت امرأة الى دكاني فصنعت لها سواراً من ذهب فأخرجت المرأة يدها ووضعت السوار في ساعدها فحيرت من بياض يدها وحسن زندها فتذكرت هذا المثنوي .

---

(١) كذا في الأصل ولعله بين النساء أو مع النساء ا هـ .

(٢) سورة الأحزاب ، الاية ٥٣

في ساعدها سوار تبر وأرى   كنار يلوح فوق ماء جاري
هل يخطر في هواجس الأفكار   ماء وله منطقة من نار

ثم أخذت يدها فعصرتها ولويتها فقالت المرأة الله أكبر لم فعلت مثل هذا الحال ؟ لا جرم أن ذلك الرجل الذي كان يدخل البيت منذ ثلاثين سنة ولم نر منه خيانة أخذ اليوم يدي فعصرها ولواها فقال الرجل الأمان أيتها المرأة مما بدا مني فاجعليني في حل فقالت المرأة الله المسؤول أن يجعل عاقبة أمرنا الى خير فلما كان من الغد جاء الرجل السقاء وألقى نفسه بين يدي تلك المرأة وتمرغ على التراب وقال يا صاحبة المنزل اجعليني في حل فإن الشيطان أضلني وأغواني فقالت المرأة امض في حال سبيلك فإن ذلك الخطأ لم يكن منك وانما كان من ذلك الشخص صاحب الدكان فاقتص الله منه في الدنيا . وكذلك ينبغي أن تكون المرأة مع زوجها ظاهرها وباطنها واحد وتقنع معه بالقليل إن لم يقدر على الكثير وتقتدي بعائشة وفاطمة رضي الله عنهما لتكون من أهل الجنة كما جاء في الحكاية .

حكاية : كانت فاطمة رضي الله عنها تطحن بالجاروشة الى أن أدمت أناملها فشكت ذلك في بعض الأيام الى بعلها علي بن أبي طالب كرم الله وجهه فقال قولي لأبيك يبتع لك خادمة فأتت رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالت يا رسول الله إني مفتقرة الى حادمة تعينني على أشغالي وتحمل عني بعض أثقالي فقال عليه الصلاة والسلام ألا أعلمك ما هو خير لك من خادم وأعز من سبع سموات وسبع أرضين فقالت يا رسول الله علمني فقال صلى الله عليه وسلم اذا أردت النوم فقولي قبل منامك ثلاث مرات سبحان الله والحمد لله ولا إله الا الله والله أكبر . وفي الأخبار انهم لم يكن لهم في البيت إلا كساء كانوا إذا غطوا به رؤوسهم انكشفت أرجلهم، وفي الليلة التي كانت فاطمة عروساً ورفت الى علي بن أبي طالب رضي الله عنه كان تحتهما جلد شاة وكانا ينامان عليه وما كان لفاطمة من متاع البيت سوى كساء ومخدة من أدم حشوها ليف لاجرم ينادي لها يوم القيامة يا أهل الموقف غضوا أبصاركم حتى تعبر سيدة النساء فاطمة الزهراء .

والمرأة تعز عند زوجها وتنمو محبتها في قلبه باكرامها له وطاعتها لامره وقت خلوته ومجامعته لها وبحفظها منافعه واجتنابها مضاره وتربيتها ولده واكتنانها في بيته وقلة خروجها من خدرها وأن تكون عنده عفيفة كاتمة للسر محتملة للأمر وأن تحفظ وقت طعامه ومهما علمت أن يشتهيه اصطنعته بطلاقة وجه وبشر وان لا تكلفه حاجة ثقيلة وان لا تكون لجوجة وان تستر نفسها عند منامها وان تحفظ سر زوجها في غيبته وحضوره .

قال صاحب الكتاب وواجب على الرجال أن يؤدوا حق النساء العورات وأن يتحفظوا بهن من وجه الرحم والإحسان والمداراة ومن أحب أن يكون مشفقاً على زوجته رحيماً لها فليذكر عشرة أشياء من أحوالها ليصفها بها . أولها أن المرأة لا تقدر أن تطلقه بغير اذن وهو قادر على ذلك متى شاء ، وانها لا تقدر أن تأخذ شيئاً بغير اذنه وهو قادر على ذلك ، وانها ما دامت في حباله لا تقدر على زوج سواه وهو يقدر على الزواج عليها ، وانها لا يجوز لها أن تخرج من البيت بغير اذنه وهو يجوز له ذلك ، وانها لا يمكنها ان تعزي وهو يمكنه ذلك ، وانها تخاف منه وهو لا يخافها ، وأنها تقنع منه بطلاقة وجهه في وجهها وبالكلام اللين وهو لا يرضى بجميع أحوالها ، وانها تفارق أمها وأباها وجميع أقاربها ، وانها تخدمه دائماً وهو لا يخدمها دائماً ، وانها تتلف نفسها اذا كان مريضاً وهو لا يغتم لو ماتت. فلهذه الوجوه التي ذكرناها يجب على العقلاء أن يكونوا رحماء على النساء ولا يظلمونهن ولا يجوروا عليهن فإن المرأة أسير الرجل ويجب على الرجال مداراة النساء لنقص عقولهن وبسبب نقص عقولهن لا يجوز لأحد أن يتدبر برأيهن ولا يتلفت الى أقوالهن ومن اعتمد على آرائهن ودبر نفسه بمشورتهن كان كما جاء في الحكاية .

حكاية : يقال أن خسرو بن أبرويز كان يحب أكل السمك فكان يوماً جالساً وشيرين معه فجاء الصياد ومعه سمكة كبيرة فأهداها لخسرو ووضعها بين يديه فأعجبته فأمر له بأربعة آلاف درهم فقالت شيرين بئس ما فعلت فقال ولم فقالت لأنك اذا أعطيت أحداً من حشمك بعد هذا مثل هذه العطية احتقرها وقال أعطاني مثل ما أعطى الصياد فقال الملك لقد صدقت ولكن

يقبح بالملك استرجاع ما وهبه وقد فات ذلك الأمر فقالت شيرين أنا أدبر هذا الحال فقال وكيف ذاك فقالت تدعو الصياد وتقول له هذه السمكة ذكر أم أنثى فإن قال أنثى فقل انما أردت ذكراً وان قال ذكر فقل انما أزدت أنثى فنودي الصياد وكان ذا ذكاء وفطنة فقال خسرو هذه السمكة ذكر أم أنثى فقبل الصياد الأرض وقال أدام اللّه إقبال الملك هذه السمكة خنثى لا ذكر ولا أنثى فضحك خسرو من كلامه وأمر له بأربعة آلاف درهم أخرى فمضى الصياد الى الخازن وقبض منه ثمانية آلاف درهم ووضعها في جراب كان معه وحملها على كاهله وهم بالخروج فوقع من الجراب درهم واحد فوضع الصياد الجراب عن كاهله وانحنى على الدرهم والملك وشيرين ينظران اليه فقالت شيرين لخسرو أرأيت الى خسة هذا الصياد وسفالته سقط منه درهم واحدٍ فألقى عن عنقه ثمانية آلاف درهم وانحنى على ذلك الدرهم فأخذه ولم يسهل عليه أن يتركه فكان يأخذه بعض غلمان الملك فحرد خسرو من ذلك ثم أعاد الصياد اليه وقال له يا ساقط الهمة ألست بإنسان وضعت مثل هذا المال عن عنقك لأجل درهم واحد وأسفت أن تتركه فكان يتبلغ به بعض الصعاليك فقبل الصياد الأرض وقال أطال اللّه إقبال الملك لم أرفع ذلك الدرهم لخطره عندي وإنما رفعته عن الأرض لأن على أحد وجهيه اسم الملك وعلى وجهه الآخر صورته فخشيت أن يجيء أحد بغير علم فيضع قدمه عليه فيكون ذلك استخفافاً باسم الملك وصورته فاكون أنا المأخوذ بهذا الذنب فعجب خسرو من كلامه وأمر له بأربعة آلاف درهم أخرى فعاد الصياد ومعه اثنا عشر ألف درهم وأمر خسرو منادياً ينادي لا يتدبر أحد برأي النساء فإن من تدبر بآرائهن أو ائتمر بمشورتهن خسر درهمه درهمين .

قال صاحب الكتاب رضي اللّه عنه عمارة الدنيا وتناسل بني آدم بالنساء والعمارة لا تصح بغير رأي وتدبير وقيل شاوروهن وخالفوهن ويجب على الرجل الفاضل المتيقظ أن يحتاط في خطبة النساء وطلبهن وليزوج البنت لاسيما اذا بلغت لئلا يقع في الغدر والعيب ومرض الروح وتعب القلب. وعلى الحقيقة كلما ينال الرجل من البلاء والهلاك والمحن فبسبب

النساء كما قال الشاعر :

من فتنة النسوان قد يعصى الفتى الر	حمن أو يخشى من السلطان
اللص لولاهن لم يك بائعاً	للروح منه بأرخص الأثمان
منهن قرع آدم مع يوسف	في محكم التنزيل بالعصيان
وكذاك هاروت ببابل منكس	ومعلق بالشعر في جذعان
مجنون عامر هام من أجل النسا	في السند باد عجائب النسوان
كل البلا منهن يأتي والوفا	منهن لا يأتي مدى الأزمان

*****

تم الكتاب بحمد الملك الوهاب ، والصلاة والسلام على خير البريات سيدنا ومولانا ونبينا محمد سيد السادات وعلى آله وأصحابه عدد الأوقات والساعات ا هـ .

الفهرس

الموضوع	رقم الصفحة